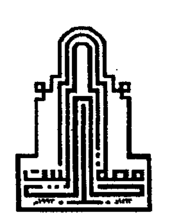
بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم

قسم اللغة العربية

رسالة ماجستير بعنوان:

شعر الشكوى من الحكّام في العصر الأموي

(٤١هـ – ١٣٢هـ / ٦٦١م – ٧٤٤م)

The Poetry of Complaint from the Rulers in the Ommayad Period (41 H – 132 H – 661 C – 744 C)

إعداد الطالب:

سالم عودة عطية الزبون

الرقم الجامعي:

(٩٩٢٠٣٠١٠٠٥)

إشراف:

الدكتور عبد الرحمن الهويدي

الفصل الدراسي الثاني

٢٠٠٣/٢٠٠٤

شعر الشكوى من الحكّام في العصر الأموي
(٤١هـ – ١٣٢هـ / ٦٦١م – ٧٤٤م)

The Poetry of Complaint from the Rulers in the Ommayad Period (41 H – 132 H – 661 C – 744 C)

إعداد الطالب:

سالم عودة عطية الزبون

الرقم الجامعي:

(٩٩٢٠٣٠١٠٠٥)

إشراف:

الدكتور عبد الرحمن الهويدي

أعضاء لجنة المناقشة:		التوقيع
د. عبد الرحمن محمد الهويدي	مشرفاً ورئيساً	....
د. محمد محمود الدروبي	عضواً	....
د. محمد موسى العبسي	عضواً	....
أ. د عبد القادر أحمد الرباعي	عضواً	....

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم اللغة العربية في كلية الآداب والعلوم في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها بتاريخ: / /٢٠٠٤م.

الإهداء

إلى والديَّ الحبيبين .... وفاءً وإجلالاً . . .

إلى إخوتي وأخواتي .... صدقاً وتقديراً . . .

إلى كل قلبٍ نبضَ بالإنسانية والحب . . .

إلى كل من وقعت عيناه هنا . . .

أهدي هذا المجهود . . .

سالم

كلمة الشكر

خالص الشكر وجزيله إلى أستاذي القدير (عبد الرحمن الهويدي) على ما قدمه لي وأحاطني به من جهود وتوجيهات في رسالتي هذه، كما أخص بالشكر الدكتور (يحيى الجبوري) الذي قادني في أول الدرب... وأتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بتقييم هذا العمل المتواضع، الدكتور محمد الدروبي والدكتور محمد العبسي والأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي)، وكل أساتذتي في قسم اللغة العربية.

وأشكر أيضاً جامعة آل البيت وكلية الآداب والعلوم.

كما أشكر كل من آزرني وساعدني وأعانني في إنجاز هذا العمل فجزاهم الله عني خير الجزاء.

الملخص باللغة العربية

يعد العصر الأموي من أكثر العصور ازدهاراً في تاريخ الأمة العربية و الإسلامية في شتى مناحي الحياة، الحضارية والسياسية والاقتصادية والأدبية، ولقد تصدت دراسات كثيرة لدراسة هذا الفترة الزمانية ومنجزاتها الأدبية، ومع كثرة هذه الدراسات فأن أبواباً ما زالت تفتح وأسئلة كثيرة تطرح، وظواهر الشعر في العصر الأموي كثيرة جداً ومنها ظاهرة الشكوى من الحكام ولقد حاولت هذه الدراسة الوصول إلى دواوين الشعر في العصر الأموي لتستكشف أسباب هذه الظاهرة، ودوافعها ودور الحكام فيها.

تناولت الدراسة المفهوم العام للشكوى والارهاصات الأولى لهذه الظاهرة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ثم تناولت الشكوى السياسية في العصر الأموي متمثلة بالشكوى من ظلم الخلفاء ومن هم دونهم من ولاة وسعاة وجامعي ضرائب وقادة الجند وتناولت الشكوى من ولاية العهد أيضاً.

ورصدت الدارسة في جانبها الاجتماعي الشكوى من الفقر والحرمان ودور الحكام في تعزيزهما من خلال سياسات غير عادلة وذلك بإغداق الأموال على الأعوان وحرمان الآخرين، وما أفرزته من نتائج على الصعيد الاجتماعي والأدبي كازدهار ظواهر كانت قد تلاشت بقدوم الإسلام كظاهرة (الصعلكة)، وتطرقت الدراسة في الشكوى الاجتماعية إلى السجن وأحواله وما يلاقيه المسلمون من ألم وضيق، وتفنن الشعراء في ذكر السجون وأبوابها والأغلال والسلاسل التي كانت تغل في أقدامهم وأعناقهم، وصفات السجان الجسدية والنفسية.

أما في خصائص شعر الشكوى الفنية فظهرت السمات التالية:

- اعتماد الظاهرة على المقطوعات الشعرية القصيرة.
- كانت صورها في أغلبها مستمدة من الواقع المعاش.
- وكانت الألفاظ سهلة بسيطة وغير معقدة.

فهرس المحتويات

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سـيدنا محمـد وعلـى آلـه وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد تناولت هذه الدراسة شعر الشكوى من الحكام في العصر الأُموي (٤٠هـ-١٣٢هـــ) فالإقدام على دراسة الأدب العربي القديم، وتحليل نصوصه وتتبعها واستخراج الظواهر العامــة؛ من أولى الخطوات التي تربط حاضر أمتنا بماضيها التليد، وتزيد من إحساس العربـي بقوميتـه واعتزازه بقرآنه.

وعلى الرغم مما حفل به العصر الأموي الذي يعد من أخصب عصـــور الأدب العربـي وأنضجها من اهتمام وعناية، من قبل الدارسين لمختلف فنونه الأدبية، فإن الطريق ظلت سـالكة أمام الدراسات والبحوث، لتقديم صورة حقيقية صادقة عن العصر وعطـاء الشّـعراء. ولــهذا جاءت هذه الدراسة لشعر الشكوى في هذا العصر، تنطوي على أهمية كبيرة، لأنها تؤرخ لفـترة مهمة من حياة أمتنا العربية، وترسم صورة نفسية لطبيعة المجتمع في تلك المدة، التـي شـهدت أفانين من الظلم والقهر والفقر بين أبنائها، فانعكست آثار ذلك في شـعر الشـكوى، الـذي أكـد امتداده العميق في حياة الأمة، فكان الوجه الحقيقي لآلامها وشقائها وآمالها.

ومن هنا يأخذ البحث أهميته وقيمته فضلاً عما يتميز به العصر من شيوع الشـكوى بمـا يشكل ظاهرة عامة فيه، وهكذا كانت هذه الدراسة التي تتناول شعر الشكوى فـي تلـك الحقبـة التاريخية التي لم يلتفت إليها الدارسون، اللهم إلا من دراسات عرضية تناولت هذا الفـن ضمـن الأغراض الشعرية الأخرى وكان ينقصها الشمولية والتخصص .

إن هذا الموضوع محتاج إلى من يدرسه دراسة موضوعية فنية متأنية، ومن هنا أقدمـت على دراسته تدفعني رغبة في التسلل إلى أشـعار أولئـك الفقـراء والمحرومين وأصحـاب الطموحات والآمال المتعثرة لاكتشاف أسرارها المدهشة حيث الألم والشـقاء والحـزن والأمـل والطموح والتنهدات.

وتكمن أهمية موضوع الدراسة بابتعاد الدارسين عنها، وعدم دراستها بشكل مستقل، فقـد دُرِسَت من قبل باحثين من خلال دراسات في تاريخ الأدب والشعر السياسي، ولم تتفرد دراسـة متخصصة لظاهرة الشكوى من الحكام في العصر الأموي، وإن كانت هناك بعـض الدراسـات القريبة، فقد اطلع الباحث على رسالة ماجستير لــ (بتول حمدي البستاني، والموسـومة بظـاهرة الشكوى في شعر هذيل) وكما يظهر من عنوانها، فهي متخصصة بدراسة أشعار الشكوى لـدى شعراء قبيلة هذيل وثمة دراسة أخرى لـ(جواد رشيد مجيد، وهي رسـالة ماجسـتير موسـومة

بالشكوى في شعر القرن الرابع الهجري) وهي تبتعد زمانياً عن العصر الأموي إلا أن الباحث أفاد من هذه الدراسة من خلال مراجعها ومنهجها.

لقد فرضت طبيعة الدراسة منهجاً تاريخياً وآخر أدبياً تحليلياً من خلال استقراء النصوص الشعرية وتحليلها واستخلاص دلالات سياسية واجتماعية عامة من خلال علاقة شعر الشكوى بالحياة.

فقد اشتملت الدراسة على تمهيدي تحدث فيه الباحث عن المفهوم العام للشكوى والشكوى في الشعر الجاهلي وفي عصر صدر الإسلام، وأنواع هذه الشكوى ودوافعها، وفي الفصل الأول من الباب الأول عن الشكوى السياسية تحدث الباحث عن الشكوى من ظلم الخلفاء وفي الفصل الثاني من الباب الأول تحدث عن الشكوى من ولاة العهد، أما في الفصل الثالث فقد تحدث الباحث عن الشكوى من الولاة والسعاة وعمال الخراج وقادة الجند وسياساتهم.

وقد استهل الباحث الفصل الأول من الباب الثاني الموسوم بالشكوى الاجتماعية بالحديث عن الشكوى من الفقر والحرمان ودور الحكام فيهما وفي الفصل الثاني من هذا الباب تناول الشكوى من السجن والسجان وما يلاقيه المسجون من غربة واغتراب وسوء معاملة.

أما الجزء الثاني من الدراسة فقد تناول الجانب الفني للدراسة من حيث الصورة الشعرية ومصادرها وموادها واللغة والأسلوب والموسيقى الداخلية والخارجية والخصائص الفنية في الفصل الأول من الباب الثالث وفي الفصل الثاني من الباب نفسه فقد تناول بناء القصيدة والرحلة والراحلة وحسن التخلص وخواتم أشعار الشكوى.

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين، سائلين المولى أن تكون هذه الدراسة مفيدةً للعلم وأهله.

تمهيد

مفهوم عام للشكوى

الشكوى عاطفة أساسها الشعور بالحرمان، ولعلها من أدل الفنون التي تفصح عن عاطفة الإنسان المتشائمة الناقمة، وتعكس أوجاع النفس في أشجانها وقنوطها وآلامها نتيجة التناقض أو الإحباط أو الضعف الذي يواجهه الإنسان إزاء قوة لا يقدر عليها، كالقضاء والقدر أو يرى الغلط والظلم أو وجود (الخلل في مجتمع متخلف يقف حائلا دون إنضاج العلاقات الإنسانية الرفيعة)[١]، فلا يستطيع لها ردا عمليا، فيذهب صوب اللغة، يعبر من خلالها عن آلامه وأشجانه وتشاؤمه.

وربما ترد الشكوى حينما يكون الإنسان عاجزا جسميا وعقليا، عن الوصول إلى هدفه ومطامحه، وإشباع حاجاته، فيشكو قلة حيلته، ليجد المتنفس لمشاعر الحزن والضيق والسخط التي يحس بها؛ لذلك قيل قديما "الشكوى تخفف الهم وتزيل الألم"[٢].

وربما في إفصاح الشاعر عن الحزن والشجن في شكواه، يكون من أصدق الناس تعبيرا عن الحقيقة النفسية، لأنه يعبر عن حالات وجدانية، ومعاناة حقيقية وعواطف وهاجة، كما أنه في خضم انفعاله، يصور مشاعره وعواطفه الإنسانية الحزينة بطريقة آنية بعيدة عن التصنع والافتعال، لذلك فقلما تجيء الشكوى متكلفة فاترة "فلا بد أن يتوافر في التجربة صدق الوجدان، فيعبر الشاعر فيها عما يجده في نفسه ويؤمن به"[٣].

وأهم ما يبرر صدق العاطفة في الشكوى قرب الشعراء من مواضيعهم فكثيرا ما يلحق التناقض والحيف والإحباط الذي يصيب المجتمع الشاعر نفسه، فيدفعه إلى الشكوى التي تفجر معاناته الذاتية "والحق أن أقدر الناس تعبيرا عن الشقاء، من كان الشقاء في نفسه، وأقدرهم تعبيرا عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه"[٤].

وتمثل فكرة التوجع والألم الدلالات اللغوية العامة للشكوى، فقد ورد في اللسان أن الشكاية و"الشكية": إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه، والاشتكاء إظهار ما بك من مكروه أو مرض ونحوه، وأشكيت فلانا إذا فعلت به فعلا أحوجه إلى أن يشكوك، والشكي أيضا: الموجع،

---

(١) بتول حمدي البستاني، **ظاهرة الشكوى في شعر هذيل**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ص١٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبي القاسم حسين بن محمد المفضل (ت٥٠٢هـ)، **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**، مج١، ج٢، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٤٣٨.

(٣) محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي الحديث**، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٧٤، ص٣٦٦.

(٤) أرسطو، **فن الشعر**، ترجمة وشرح وتحقيق: عبد الرحمن بدوي، ص٤٨.

ومعنى أشكيه كذلك، أي أبثه شكواي وما أكابده من الشوق إلى الظاعنين من الربع، حين شوقتني معاهدهم فيه إليهم(١).

وهكذا تتقارب معاني هذه اللفظة لغوياً، والشاكي في كثير من معانيه ينشد أهدافاً إنسانية نبيلة برغبات غير معلنة، فهو بشكواه يسعى إلى كشف الخلل الاجتماعي واضطراب القيم، وتصوير مظاهر الاضطهاد والجور والغبن التي تلحق به وبمجتمعه، من أجل إزالة ذلك الحيف والخلل، أو التمرد عليه ورفضه، وهكذا يصبح شعوره بالظلم بحسب هذا المفهوم، رمزاً لافتقاد العدالة، فيعبر بحسرته وآلامه ونقصه عن ذلك الوجع المتعاظم في النفس(٢)، ثم إن الأديب أو الشاعر عندما يعبّر عن أفكاره ومشاعره، فإنه لا يعبر عن تلك الأفكار والمشاعر بمعزل عن الواقع الاجتماعي المحيط به، بل يقدمها في سياق أحداث أو مواقف أو علاقات اجتماعية؛ فالشاعر هو "عملية متميزة بعض الشيء داخل عملية كبرى هي المجتمع"(٣).

١. الشكوى في الشعر الجاهلي

الشكوى فن من فنون الشعر الوجداني العميق(٤)، وقد ظهرت في الشعر العربي القديم(٥)، وصاحبت الشعراء في انفعالاتهم العميقة، وعواطفهم الشديدة على مرّ العصور، إزاء ما واجهوه من اختلال سياسي وتناقض اجتماعي واضطراب نفسي، فضلاً عن أمور شخصية وخلقية أخرى.

ومع أن الألم والنقمة والسخط هي الظواهر العامة في شعر الشكوى، لكن هذه الظواهر تكاد تتمايز، وتختلف من عصر لآخر من حيث الشكل والمعنى.

ففي العصر الجاهلي، لم يكن شعر الشكوى يمثل ظاهرة عامة، كبقية أغراض الشعر الجاهلي، فالقصائد الجاهلية، تلم بأنواع الفنون الشعرية كالفخر، والغزل والرثاء والوصف وغيرها، ولكنها لا تكاد تتصرف إلى الشكوى إلا لماماً، وهذا راجع بطبيعة الحال لنفسية العربي الذي لا يميل إلى الخنوع أو الخضوع لإظهار الضعف، وإنما ينزع إلى القوة لاسترداد حقه المغتصب. ولكن ذلك لا يمنع الشاعر الجاهلي، إن وجد نفسه في لحظة من اللحظات، أو موقف من المواقف، أن ليس أمامه إلا أن يشكو ويتظلم، بعد أن أحس إحساساً عميقاً بالظلم، وبما

---

(١) اللسان: مادة شكا.

(٢) للمزيد انظر، جواد رشيد مجيد، **الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري**، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٨م.

(٣) مصطفى سويف، **الأسس النفسية للإبداع الفني في الشّعر خاصة**، ط٣، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٧٠، ص٣٤٠.

(٤) مصطفى الشكعة، **فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين**، بيروت، عالم الكتب، ١٩٧٧، ص٣٦٩.

(٥) علي جواد الطاهر، **الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي**، ج٢، ص١٢٤.

يناقض مثله وفضائله وقيمه؛ فهو "حين عبر عن عواطفه، فتغنى بآماله وأحلامه وفاخر بنفسه وقبيلته، ومدح وهجا، ووصف ورثى، فإنه قد تظلم حينما شعر بالظلم، وشكا حينما أحس بالحيف"[١].

وشكوى الشاعر الجاهلي عموماً، تتصف برهافة الحس وقوة الشعور وصدق التعبير، لأنه مثل واقعه خير تمثيل في شعره، ونقل تجارب شاهدها وأحس بها وانفعل لها، فهو لم يسمُ بشعره هذا إلى الذروة الفنية، إلا لكونه "تنفيساً صادقاً ملتهباً، وتصويباً مخلصاً وفياً لبيئة الجاهليين وحياتهم ونفسياتهم، بكل ما كان فيها من محاسن ومساوئ، وكل ما حددها من حدود مادية وفكرية واجتماعية"[٢].

وأكثر المعاني التي طرقها الشاعر الجاهلي في شكواه، شكوى القريب والزمان وسوء الحال والكبر والحبيبة[٣]، ففي شكوى الحبيبة مثلاً، ضمن قدراً كبيراً من أشعاره، وبث فيها شكواه ولواعجه وأشواقه وحرمانه ولم يتحرج –بعض الأحيان– من أن يخرج عن حدود العفة، إلى التصريح الحسي في غزله وشكواه، بما يثير اللذة والنشوة في نفسه، دون الالتفات لمشاعر المرأة وصفاتها المعنوية.

وقلما نجد في شكوى الشاعر الجاهلي من الموت والحياة، الحكمة التي تصل إلى درجة التأمل الفلسفي، فقد كانت نظرته عامة، استسلم فيها لمصير الموت برؤية دنيوية محضة، تخلو من النفحات الدينية في معظمها. فهو بتعامله مع الموت، ببساطته المعهودة، أدرك أنه المصير الذي يتهدده دائماً؛ لكن إحساسه كان أمامه ضعيفاً يائساً، وهذا اليأس راجع "للعقيدة الجاهلية الذاهبة إلى أنه ليس ثمة من حياة سوى الحياة الدنيا"[٤]. ولكنه لم يجد تفسيراً للغزه سوى التيقن بأن الحياة زائلة لا محالة، فالموت الذي أفنى قومه وآباءه، سينشب فيه أظفاره في النهاية، يقول امرؤ القيس[٥]:

أرجّي من صروف الدهرِ لينا	ولم تغفلْ عَنْ الصمِّ الهضابِ
واعلم أنـــــني عما قليل	سأنشب في شبـا ظفرِ ونابِ
كما لاقى أبي حجـــرٌ وجدي	ولا أنســـى قتيلاً بالكلابِ

---

(١) قحطان رشيد التميمي، "الشكوى في الشعر الجاهلي"، **مجلة كلية الآداب**، بغداد، العدد ١٣، ١٩٧٠، ص١٤٠.

(٢) محمد النويهي، **الشعر الجاهلي**، ج٢، ص٨٨٤.

(٣) قحطان رشيد التميمي، "الشكوى في الشعر الجاهلي"، **مرجع سابق**، ص١٤١ وما بعدها.

(٤) يوسف اليوسف، **مقالات في الشعر الجاهلي**، ط٤، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٤٥.

(٥) **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠، ص٩٩-١٠٠.

وكانت نظرة الجاهليين تقوم على شكوى الزمان أو الدهر، عند حدوث الموت، بعد أن "رسموا الزمن في أذهانهم قوة قادرة على الإهلاك"[١].

وهو تفسير بدائي يلائم عقيدتهم، التي لم ترتق إلى مستوى عقلي متقدم، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم من قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[٢].

فمن الشعراء الذين جسدوا هذه المعاني، الخنساء التي اشتكت من الدهر الذي غدر بقومها وفتك بهم[٣]:

تعرّقني الدهرُ نهشاً وحزّاً	وأوجعنَي الدهرُ قرعاً وغمزا
وافنى رجالي فبادوا معاً	فَغُودِرَ قَلْبِي بِهم مستفزا[٤]

فمجافاتهم للدهر وشكواهم منه وَصَلَ حداً بعيداً، فراحوا يلصقون به كل تظلم وقطيعة وغدر يلم بهم، فإن جار الأقارب عليهم شكوه وعاتبوه عتاباً مراً، طالبين منه الأمان. يقول عنترة بن شداد في ذلك[٥]:

أعاتب دهرا لا يلين لعاتب	وأطلب أمنا من صروف النوائب
وتوعدني الأيام وعداً تغر بي	وأعلم حقا أنه وعد كاذب
خدمت أناساً واتخذت أقارباً	لعوني ولكن أصبحوا كالعقارب

وإن بعدت الحبيبة شكوا الزمان واتهموه بالتنكر لهم، فهو ظالم لأنه أحال حسنات المحب إلى مذمة وعيوب في نظرهم:

حسناتي عند الزمانِ ذنوبُ	وفِعَالي مَذَمةً وعيوبُ
ونصيبي من الحبيبِ بعادٌ	ولغيري الدنو مِنهُ نصيبُ[٦]

ووصل إحساس الشعراء بقسوة الزمن عليهم، أنهم رأوه يشاركهم أفعالهم حتى في عشقهم، فقد رأى عنترة أن الزمان أصبح محباً، أما هو فقد صار الرقيب:

---

(١) عبد الإله الصائغ، **الزمن عند الشعراء قبل الإسلام**، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، ص ٦٤.

(٢) سورة الجاثية، آية ٢٤.

(٣) **شرح ديوان الخنساء**، تحقيق: عبد السلام الحوفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص٥٩.

(٤) تعرقني: أخذ ينهش ما على عظمي من لحم، النهش: الأخذ بالأنياب، قرعاً: ضرباً، غمزاً: عصراً، مستفزاً: مستخفاً.

(٥) عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، **شرح ديوان عنترة بن شداد**، تقديم إبراهيم الأبياري، شركة فن الطبع، شبرا، د.ت، ص٢٥.

(٦) المرجع نفسه، ص٢١.

فكأن الزمانَ يهوى حبيباً   وكأني على الزمانِ رقيبُ[١]

وهكذا دخلت هذه النظرة البدائية، والنزعة العدائية شكوى الشاعر الجاهلي، التي كان قوامها تجربته الحسية النفسية والوجودية في شعره "وتلك التجربة وإن استقرت على سنة وبات لها شبه تقليد، فإنها صدرت عن العفوية واستمرت من استمرار الباعث الداخلي"[٢].

٢- عصر صدر الإسلام

بدخول هذا العصر نهض الشعر بمهمة الأخذ بمبدأ العدالة الاجتماعية، وكان مثالاً حياً على المفاهيم الأخلاقية، والقيم الجديدة التي أفرزها الإسلام، وظهرت واضحة جلية في قصائد الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[٣].

فعندما بزغ فجر الإسلام حمل معه ثورة فكرية وإنسانية واسعة تصدت لمظاهر الارتداد الديني والتعصب القبلي والاضطهاد والظلم الاجتماعي وكان من آثاره "أن خرج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة"[٤].

وما أصاب الحياة العامة في هذا العصر أصاب فنون الشعر أيضاً، إذ حدد القرآن موقفه من الشعراء بالآية الكريمة ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعَهُمُ الغَاوُون * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِيْ كُلِّ وَادٍ يَهِيْمُوْن * وَأَنَّهُم يَقُولُوْنَ مَا لاَ يَفْعَلُوْن * إِلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وذَكَرُوا اللهَ كَثِيْراً وانتَصَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا..﴾[٥].

ومثلما حدد القرآن موقفه من الشعراء، حدد النبي محمد ﷺ الشعر الحق الذي يواكب مسيرة الإسلام، في ضوء المجتمع الجديد بقوله "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"[٦].

وكان للنقلة التي أحدثها الإسلام في الحياة العربية بكل جوانبها، الأثر البالغ في الشعر العربي آنذاك، "ولا غرابة في ذلك لأن الشعر هو التعبير عن مشاعر الناس والتجسيد لأفكارهم،

---

(١) عبد المنعم عبد الرؤوف شبلي، مرجع سابق، ص٢١.

(٢) إيليا الحاوي، **في النقد والأدب، العصر العباسي**، ج٣، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦، ص٩.

(٣) عبد القادر القط، **في الشعر الإسلامي والأموي**، مكتبة الشباب، مصر، د.ط، د.ت، ص٣٣.

(٤) شوقي ضيف، **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، ط٢، دار المعارف، مصر، ص٧١.

(٥) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

(٦) ابن رشيق القيرواني، أبو علي حسن (ت٤٦٣هـ)، **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه**، تحقيق: محمد قرقزان، ط٢، مطبعة الكاتب العربيّ، دمشق، ١٩٩٤، ص٣٧.

وهذا يتمثل بتأثير الإسلام في كل الفنون الشعرية التي كانت تسود عصر صدر الإسلام والدولة الأموية، وفي خصائص الشعر الفنية، من حيث الألفاظ والمعاني والأفكار والصور والأخيلة"[١].

فالشعراء مالوا عن الألفاظ الشديدة، المستمدة من قسوة الصحراء وخشونة الحياة البدوية، عما كانت عليه في العصر الجاهلي، إلى الألفاظ الرقيقة والكلام السهل في ظل الإسلام. وقد أشار الجرجاني إلى تأثير الإسلام والتحضر في رقة الكلام وسهولتهِ بقوله "فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعهدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة، فاختاروا أحسنها سمعاً وألطفها من القلب موقعاً"[٢]. ولقد كان لشعر الشكوى نصيب وافر من هذا التأثير سواء في المعاني أو الألفاظ، إذ أن الإسلام حمل الشعراء بقيمه على هجر السباب والفحش وإدانة الإلحاد والوثنية. وقد بلغ من امتثال الشعراء لأمر المثل الإسلامية أن جسدوها في إشعارهم وجاهروا بها صراحة، يقول يزيد بن الحكم الثقفي[٣] في ذلك:[٤]

أبى الشيبُ والإسلام أن اتبعَ الهوى وفي الشيبِ والإسلام للمرءِ وازعُ

لذا فقد خرج الشعراء بالشكوى إلى أمور أخرى، هي ألصق بمبادئ الدين الجديد والإيمان به، وأكثر ما تكون هذه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه حسب الشريعة الإسلامية لا يجوز الشكوى لغير الله. وظهرت حتى في شكوى حبيباتهم، كقول جميل بثينة[٥]:

إلى اللهِ أشكو لا إلى الناسِ حُبهَا ولا بدَّ مِنْ شكوى حبيبٍ يروعُ

ألا تتقينَ اللهَ فيمن قتلتِه فأمسى إليكم خاشعاً يتضرعُ

ألا تتقين اللهَ في قتلِ عاشقٍ لـه كبدٌ حرى عليكَ تقُطعُ

وليس هذا فقط في شكواهم للحبيبة، فقد تغيرت نظرتهم لها بعد أن تحولت بنظرهم إلى قيمة روحية، فزخر قاموسهم الشعري بمثلها الأخلاقية، وأفردوا قصائد كاملة لوصف صفاتها

---

(١) سامي العاني، **الإسلام والشعر**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٣، ص٥.

(٢) الجرجاني، عبد القادر (ت٤٧٤)، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ص١٨.

(٣) هو يزيد بن ابي العاص بن بشر بن دهمان الثقفي، شاعر عالي الطبقة من أعيان العصر الأموي (ت١٠٥هـ)، انظر ترجمته: الزركلي، **الأعلام**، ج٩، ص٢٣٢.

(٤) صدر الدين علي بن الحسن البصري، **الحماسة البصرية**، تحقيق: مختار الدين أحمد علي، ط٣، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، ج٢، ص١٧.

(٥) **ديوان جميل شاعر الحب العذري**، جمع وتحقيق: حسين نصار، ص١١٧-١١٨.

المعنوية[١]، ازدحمت فيها المفردات الإسلامية التي مزجوا بينـــها وبيـــن لوعتـــهم ومشـــاعرهم الطافحة بالحب، فالشاعر ابن الطثرية[٢]، يستحضر هذه المعاني والمفردات في وجـــده لحبيبتـــه وعتابه وشكواه لها بعد أن وجد غربة في هجرها له فيذكرها بذنبها الكبير يوم القيامة بقوله[٣]:

أما مِنْ مقامٍ اشتكي غربةَ النوى	وخوفَ العدِا فيه إليك سبيلُ
فؤادي أسيـــرٌ لا يُفَك ومُهجَتي	تفيضُ، وأحزاني عليكَ تطولُ
فما كلُّ يومٍ لـــي بأرضِكِ حاجـــةٌ	ولا كلُّ يومٍ لـــي إليك رسولُ
صحائفُ عندي للعتابِ طـــويتُها	ستنشرُ يوماً والعتابُ طـــويلُ
فلا تَحْمِلِي ذَنْبـــي وأنتِ ضعيفةٌ	فحملُ دمي يومَ الحسابِ ثقيلُ

وفيما يتعلق بمسألة الحياة والموت، فقد استطاع الإسلام أن يقلب معتقدات الجاهليين رأساً على عقب، فبعد ما كان يعتقد الجاهلي في شكواه، أن للدهر سطوة كبيرة على جميع المخلوقات، بما فيـــها الإنسان، وما رسم له في ذهنه من قوة قادرة على الإهلاك، أصبحت للشـــاعر الإســـلامي نظراتـــه الجديدة، التي وضحت معالمها رؤى الإسلام، واستطاعت أن ترتقي بفكره إلى مستوى ديني رفيـــع، لا سيما بشأن الثواب والعقاب، والجنة والنار؛ لذلك فقد توجه الشاعر المسلم في شكواه من الموت إلى الله سبحانه وتعالى، بعد أن تيقن قضاء الله وقدرته، كقول الشمردل اليربوعي[٤]:

إلى اللهِ أشكوُ لا إلى الناسِ فَقْدَهُ	ولوعةَ حزنٍ أوجعَ القلبَ داخِلهُ

---

(١) بتول حمدي، **ظاهرة الشكوى في شعر هذيل**، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٢) هو يزيد بن الصمة بن الطثرية، شاعر إسلامي مطبوع (ت١٢٦هـ)، انظر ترجمته، الزركلـــي، **الأعـــلام**، ج٩، ص٢٣٦.

(٣) شعر يزيد بن الطثرية، **صنعة حاتم الضامن**، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة أسعد، بغـــداد، (د.ت)، ص٨٨-٩٠.

(٤) هو الشمردل بن الشريك اليربوعي شاعر أموي، انظر ترجمته في الأصفهاني، الأغاني، تحقيـــق إبراهيـــم الأبياري: ج١٣، ص٤٨٦٣، وانظر شعره أيضاً، المصدر نفسه، ج١٣، ص٤٨٦٥.

الباب الأول

الفصل الأول

الشكوى السياسية

١- الشكوى من ظلم الخلفاء:

تجمع الدراسات التاريخية على أن الدولة بمفهومها القومي جنح عن الدولة الراشدية[١]، بدأت منذُ مقتل علي بن أبى طالب[٢]، وتنازل ابنه الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ، والذي عرف بعام الجماعة[٣]، فبدأ يبسط نفوذه شيئاً فشيئاً حتى انقادت له السلطة.

فبعد تنازل الحسن، أخذ معاوية يستميل أهل العراق، وكل الذين كانوا يوالون علي بن أبي طالب وأبناءه، فبدأ يستدر رضاهم بالتدريج، خاصة القادة العسكريّين ووجوه القبائل العربية، والشخصيات المعروفة لدى عامة الناس، والتي كانت استمالتها تعني استمالة الكثيرين من أتباعهم وقبائلهم. ومن أولئك مثلاً لا حصراً، الصلح الذي عقده معاوية مع قيس بن سعد، فقيسٌ هذا كان مع جيش الحسن بن علي، وكان يقوده عُبيد الله بن العباس، الذي تفاوض سراً مع معاوية، واتفقا على أن يؤمنه ويترك له المال الذي حصل عليه.

وعندما خَرَجَ عبيد الله ليلاً وترك الجيش بلا قائد وحاصرت شرطة الجيش قيساً بن سعد، تعاهدوا هم وهو على قتال معاوية، حتى يشترط لشيعة علي وأتباعه الأمان على أموالهم ودمائهم وما أصابوا زمن الفتنة. فأعطاهم معاوية ما أرادوا، وكانوا أربعين ألفاً، فدخلوا جميعاً في طاعة معاوية[٤]. وإن كان هناك روايات تؤكد أن عبيد الله كان مع الحسن، وشهد الصلح بينه وبين معاوية في الكوفة، وأنهما طلبا الأمان لكل من كان معهم على أموالهم وبنيهم[٥].

---

(١) أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠، ج٣، ص٢٠٦.

(٢) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، طبعة أحمد أمين، ج٤، ص١٨٠.

(٣) الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، **تاريخ الخلفاء**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ص١٥٢.

(٤) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٦٨.

(٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، **تاريخ الطبري**، ج٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩١، ط٣، ص١٦٩.

لقد كان معاوية أحد أشد العرب دهاءً ومكراً؛ فقد استمال بعض الناس بالمال وبعضهم بوعدٍ بمناصب واشتدَّ على البعض الآخر ليجمع الأمر له، وكذلك حصل[١].

وقد كتب إلى زياد بن أبيه بعد مقتل علي يتوعده ويتهدده، وكان زياد إذ ذاك والياً بفارس فلم يأبه لما هُدِّدَ به، بل قام في الناس خطيباً وانتقد معاوية، مستنكراً أنّ بينه وبين معاوية تسعين ألفاً من المقاتلين مع أبناء عم الرسول وأحفاده (العباس والحسن)[٢]، مهدداً بدوره معاوية.

ولكن الأمر اختلف كثيراً بعد صلح الحسن وابن عباس مع معاوية، فلقد كادَ معاوية والمغيرة بن شعبة لزيادٍ، فتوجه إلى الشام، ودخل في الطاعة والجماعة، بعد أن استأمن لماله ولنفسه ولولده، وكان ذلك عام اثنين وأربعين من الهجرة.

وبعد أن استوثق معاوية من نوايا زياد، استلحقه بنسبه، وكان إلى ذلك الحين يُعرفُ بـابن (سُمَيّة) عام ٤٤ للهجرة. وفي العام التالي قام بتوليته البصرة، وبقي إلى أن توفي المغيرة بن شعبة عام ٥٠، فألحق ولاية الكوفة إلى زياد. وبعد مهلك زياد عام ٥٣، ولى معاوية عبد الله بن زياد على خراسان، ثمَّ ولاه البصرة عام ٥٥ للهجرة[٣].

لم يكن زياد (ابن سمية) أو (ابن أبيه) أو (زياد بن أبي سفيان) كما أسماه معاوية لاحقاً بالرجل البسيط. لقد خاف معاوية من استقلال زياد بإقليم خراسان، البعيد عن السلطة المركزية بدمشق، والغني بالثروات التي أصابها الفاتحون من تلك البلاد، وقوة شخصية زياد السياسية والعسكرية. كل هذه الأمور جعلت معاوية يتخوف أن يبايع هذا الرجل لأحد من آل البيت، فيعيد عليه الحرب من جديد، فأرسل إليه من يكيد له ويشد وثاق التعاون، ونبذ الخلاف بينهما، وكان معاوية قد صفح له عن مال كثير ظل ظاهراً في بني زياد وأحفاده، وهذا مما يدعم ما ذهبنا إليه في نظرية شراء ذمم الناس بالأموال[٤].

لقد ترك معاوية أموالاً كثيرة تعود بملكيتها لبيت مال المسلمين في أيدي الناس، وهذا من الأسباب القوية التي جعلت الناس يتذمرون، ويبدون فيض خواطرهم شكوى من هذا الظلم الذي بدأ عند الخلفاء؛ فالسياسة المالية السيئة واغتصاب الناس حقوقهم، جعلهم يبدون شكواهم من

---

(١) عبد المنعم محمد الخفاجي، **الحياة الأدبية في العصر الأموي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص١٠.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٢، ص١٧١.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص-٢٤٥.

(٤) الخفاجي، مرجع سابق، ص١٠.

الخلفاء الّذين انتهجوا سياسة الملوك والسلاطين، وابتعدوا عن الخلافة، فالمال كان أول المحركات لهذه المشاعر[١].

لقد كانت السياسة التي انتهجها الحاكم في الأمور المالية أنه لا يسأل عن مال نهب أو سلب، ما لم يهدد أمن الدولة وكيان سلطانه؛ فكانت النظرة سياسية وليست دينية، وهذا بدوره يجلب سبباً آخر للسخط سوى المال. فغض الطرف عن المال العام، وتركه بيد الولاة وعمال الخراج، يعد تعدياً على حرمات الله وحدوده؛ وهذا يعني أن الحاكم لا يقوم بدوره بالحكم بمبادئ الإسلام، وبهذا يجب منابذته، كما كانت تفعل بعض القبائل والأحزاب، مثل الخوارج والمتمردين في أنحاء الدولة[٢]. ولنا أن نصطلح تسمية "الظلم المالي" لسوء إدارة المال العام في الدولة.

إن الظلم الذي وقع على مواطني الدولة الأموية الإسلامية من قبل الخلفاء لم يقتصر على معاوية بن أبى سفيان بل استمر في عهد الخلفاء الذين جاءوا من بعده، ونحن بهذا الصدد لا نترصد أخطاء لهذا الحاكم أو ذاك لنطلق عليهم أحكاماً جزافاً، وإنما هي عمليه متابعة لتصرفات أولئك الحكام، وخط سيرهم وسيرتهم بين الناس، من أجل الخروج بنتائج أكثر دقة وعلمية لتوصيف تلك المرحلة من تاريخ الأمة العربية والإسلامية. ونحن في هذا المقام لا ننصب من أنفسنا مرجعية دينية أو سياسية لقياس مقدار انحراف النخب الحاكمة.

إن النظرة الحيادية لنهج الحاكم الأموي الأول معاوية تتطلب منا تعداد مناقبه بوجهيها، فمعاوية الحاكم الأموي، كان يتمتع بصفات قيادية بارزة قلَّ نظيرها عند غيره من الأمويين[٣] الذين تولوا السلطة، واستطاع بفضل تلك السمات أن يؤسس دولة ذات عرق عربي هي أميلُ للقومية منها للدينية.

ورغم نجاحاته الباهرة بإخضاع الخصوم الأقوياء، وتذليل وكبح كل محاولات التمرد وإلحاق الهزائم بها وحماية تخوم الدولة التي ترامت على مساحات شاسعة، إلا أن سياسته امتازت بظلم فادح في بعض الأحيان، سواءٌ وقع على الأفراد أو الجماعات. ويعد مقتل (حُجْر ابن عَدي) وأصحابه أكثر الأمور وضوحاً وتدليلاً على ظلم الخليفة (الحاكم) الأموي، فحجر كان في الكوفة أيام المغيرة بن شعبة، وكان من عادة الولاة شتم علي بن أبي طالب على المنبر، ولم يكن ذاك العمل يروق حجراً، وكان يرفضهُ ويحتج عليه، وكان المغيرة متساهلاً في ذلك، يحب العافية، ولا يريد أن يحمل نفسه دماء يحمي بها عرش معاوية. وبعد موته تسلم زياد بن

---

(١) شوقي ضيف، **العصر الاسلامي**، مرجع سابق، ص٢٠٨ وما بعدها.

(٢) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص٢٠٨.

(٣) الخفاجي، **الحياة الأدبية في العصر الأموي**، مرجع سابق، ص٣٠.

عُبيدالله ولاية الكوفة، ولم يكن متساهلاً مع أحد، فأخذ حجراً ومن والاه، وبعث بهم إلى الشـــام، وأشهد عليهم سبعين رجلاً في كتابٍ بعث به معهم إلى الخليفة، وكتب فيه أسماء بعض الشـــهود ممن لم يشهدوا على ذلك ظلماً وزوراً. وقد قُتل حجرٌ وبعضَ مَنْ معه وأخلي سبيل الآخريـــن. ويعد مقتل حجر من أكبر الأخطاء التي وقع فيها معاوية، ويروى أن معاوية حين حج مرَّ علـــى عائشة (زوج الرسول) الكريم ﷺ، فقالت له: يا معاوية أما خشيت الله في قتل حجـــرٍ وأصحابـــه فقال (إنما قتلهم من شهد عليهم)[١].

لقد شكا كثير من الناس، وعلى ألسنة الشعراء، من متابعة معاوية لأنصار عليّ بقتلـــهم، فهذا قيس بن همذان الكندي يسير في مجالس كندة، يشحذ هممهم لنصرة حجر، إذ كـــان جنـــود معاوية يلاحقونه في أحياء الكوفة[٢].

يـــا قوم حجر دافعوا وصاولوا	وعن أخيكم ساعة فقاتلـــوا
لا يلفين منـــــكم لحجرٍ خـــاذلُ	أليس فيكم رامـــح ونـــابـــل؟
وفـــارس مستلئـــم وراجـــــل؟	وضارب بـــالسيف لا يزايـــل؟

فهذا الشاعر يستحث همم الناس وقوم حجر بظاهر الأمر، ولكن باطنه شكوى من ملاحقـــة هـــذا المسلم، الذي قال بعد أن قبض عليه، لزياد بن أبي سفيان: "ما خالفتُ طاعة ولا فارقتُ جماعـــة وإني لعلى بيعتي".

وقد قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية راثية حجراً وشاكية من سوء ما آل إليه.[٣]

تَـــرَفَّعْ أيَّها القمـــرُ الـــمنيـــرُ	تَبَصَّرْ هل ترى حجراً يَسيرُ
يسيرُ إلى معاوية بـــن حـــرْبٍ	لِيَقْتُلَهُ كمـــا زَعَـــمَ الأميرُ
تَجَبَّـــرَت الجَبابِرُ بعـــد حُجْـــرٍ	وطابَ لها الخَوَرْنَق والسَّديرُ
وأصبَحَتِ البلادُ بهـــا مُحـــولاً	كأن لـــم يُحْيها مُزْنٌ مَطيـــرُ
ألا يـــا حُجْرُ حجْر بن عَـــدِيٍّ	تَلَقَّتْكَ السلامـــة والسُّـــرُور
أخـــافُ عليك ما أرْدَى عَدِيًّا	وَشَيخاً في دِمشقَ لـــه زئيـــرُ

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٢٢.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٢.

يَرَى قَتْلَ الخيارِ عليه حقّاً ... لـه مـن شَـرِّ أُمَّتِه وَزِيـر

ألا ليتَ حُجْراً مات موتاً ... ولـم يُنحَرْ كما نُحِرَ البعيرُ!

فـإن تَهلِكْ فكلُّ زعيمِ قَومٍ ... من الدنيا إلى هُلْكٍ يَصيرُ

ونلحظ المرارة والأسى والشكوى في هذه الأبيات، إذ إن حجراً نُحر كما يُنحر البعير، ولم يمت موتاً، وهو زعيمٌ سيهلك كما غيره، ولكنها تمنّت إنه مات بغير هذه الطريق. كما أن هذا الذي في دمشق (معاوية)، يرى أن قتل الأخيار حق، وهو تهكمٌ واضح، وله من هذه الأمة وزير شرير في اتهام واضح وصريح لزياد والي الكوفة. ويعُدّ مقتل حجر بن عدي أول ذل دخل على العرب، إذ أنه أول عربي مسلم فتح هذه البلاد. وقد أورده الطبري في تاريخه: "عن أبي إسحاق... قال: أدركنا الناس وهم يقولون أول ذل دخل إلى الكوفة موت الحسن ومقتل حجر بن عدي ودعوى زياد"(١). ومن طريف الموقف أن حجر قتل في (مرج عذراء) وهذه الأرض فتحها حجر أيام عمر بن الخطاب، فقد قال: "أما والله لئن قتلتموني بها إنـي لأول فارس من المسلمين سلك في واديها، وأول رحل من المسلمين نبحتهُ كلابها"(٢). يمشي إليه الأعور هدبة بن فياض بالسيف فأرعدت خصاله فقال: زعمت أنك لا تجزع من الموت فأنا أدعك ما برأتَ من صاحبك، فقال: ما لي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً وكفناً منشوراً وسيفاً مشهوراً وإني والله إن جزعت من القتل لا أقول ما يسُخط الرب، فقتله وأقبلوا يقتلونهم واحداً واحداً حتى قتلوا ستة.."(٣).

ولنا أن نتخيل كم من الظلم والعدوان يلحق بهذا الفارس عندما يقتل كما الذبيحة، ويرى أكفاناً وقد جهزت له، وسيفاً يلمع أمام عينيه، وقبره محفورٌ أمامه، وهو عاجزٌ عن الدفاع عن نفسه، مُكبلٌ بأغلال، لم يكن له من جريرة يستحق بها دفع روحه ثمناً. هذه النفس التي من قتلها كأنما قتل الناس جميعاً.

ويستمر مسلسل الظلم الأموي على يد معاوية، حتى انتهى بتسليم مقاليد الحكم بعده لابنه السّكير الضارب بالطنابير يزيد، ونقلاً عن الطبري: "قال أبو مخنف: عن الصقعب بن زهير، عن الحسن، قال: أربع خصال كنّ في معاوية؛ لو لم يكن فيه منهن إلاّ واحدة لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصّحابة وذو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سِكّيراً خمّيراً، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاءه زياداً،

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٠.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٢٣٢.

وقتلهُ حُجْر!، ويلاً له من حُجر! مرّتين". وقد قال رسول الله ﷺ: "الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر"[١]. فهذه التجاوزات التي ارتكبها معاوية، كانت تورث غصة للمسلمين وتشعرهم بالغيظ الشديد، والكمد والهم والشكوى من هذه السياسات، ولكنها مع كل ما حملته من أذىً، تبقى أقل ضرراً مما جاء على يد ابنه بعده. وكان بعض الصحابة يتحملون ذلك، مخافة الفتنة وإشاعة الفوضى والإضرار بالناس، تاركين أمر معاوية وظلمه لله تعالى يوم القيامة يحاسبه كيفَ يشاء؛ فهذا عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يقول[٢]:

ألا أبْلِغْ معاوية بن حربٍ	أميرَ المؤمنينَ نَبا كلامي
فإنّا صابرونَ ومُنظِروكم	إلى يوم التغابنِ والخصامِ

وهو يفوّضُ أمره إلى الله وثقته بأن الله سيأخذ حق هذه الأمة يوم القيامة، ممن ظلمها وأساء معاملتها.

تسلم يزيد زمام الأمور بعد وفاة أبيه عام ٦٠هـ، ولم تدم خلافته سوى ثلاث سنوات، ارتكب خلالها أشنع الأخطاء وأبشعها. فبعد أن أخذ البيعة من أهل الشام، كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان "أمّا بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا"[٣]. ولم يكن خبر موت معاوية قد وصل إلى المدينة، ففهم ابن الزبير والحسين الأمر، لكثرة من أرسل إليهم الوليد يدعوهم لإجابته. ومضيا تحت جنح الليل إلى مكّة هرباً من البيعة للفاسق، وذلك بعد أن طلبا منه أن يمهلهم قليلاً من الوقت[٤].

أما عبد الله بن عمر فكان خارج المدينة عند بلوغ الخبر ولما عاد إليها بايع ليزيد[٥].

وأما الحسين وابن الزبير فالتزما مكّة، وفي هذه الأثناء وبعد سماع أهل الكوفة معارضة الحسين، بدءوا يراسلونه ويعدونه بالنصر والمقاتلة دونه، ويرفضون مبايعة يزيد، وكانوا لا يصلّون خلف واليه النعمان ابن بشير الأنصاري، وإنهم حبسوا أنفسهم من الوالي لا يحضرون معه جمعة حتى يأتيهم الحسين. بعث الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل رائداً للكوفة يستطلع أحوالها، وتلقفه أهلها بالبيعة وكتب إلى الحسين ابن علي يخبره ببيعة اثني عشر ألفاً من أهل الكوفة، ويأمره بالقدوم[٦].

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبوية** ، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، ج٤، ص١٨٤.

(٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٦١.

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦٩.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٠ وما بعدها.

(٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٨، ص١٤٨.

(٦) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٥.

وتجهز الحسين مع أهل بيته إلى الكوفة، وسط ترحيب من ابن الزبير الذي كان يراه أثقل الناس في مكّة إذ لن يبايعه الناس والحسين في هذا البلد[١]، ورفض جماعة من أهل بيته وأعوانه ومنهم ابن عباس فكان ابن عمر يقول: غلبنا حسين بالخروج، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة. وكلمه في ذلك أيضاً جابر بن عبد الله وأبو سعيد وأبو واقد الليثي وغيرهم، فلم يطع أحداً منهم، وصمم على المسير إلى العراق، فقال له ابن العباس: والله إني لأظنك ستقتل بين نسائك وبناتك كما قتل عثمان، فلم يقبل منه، فبكى ابن عباس وقال: أقررت عين ابن الزبير. ولما رأى ابن عباس عبد الله بن الزبير قال له: "قد أتى ما أحببت، هذا حسين يخرج ويتركك والحجاز"[٢].

والتقى الحسين بأناس من أهل الكوفة ونصحوه وحاولوا صده عن عزمه[٣]، وكان ذلك بعد أن قتل مسلم ابن عقيل على يد عبيد الله بن زياد، الذي ولاّه يزيد بدلاً من النعمان بن بشير، وطلب إليه في كتاب التكليف أن يتابع رهط مسلم بن عقيل ويقتلهم جميعاً. وكان مما قيل للحسين عن أوضاع أهل العراق، أن قلوبهم معه وسيوفهم عليه، ولكن لم يثن عزمه، فهو موتور بدم ابن عمه –مسلم ابن عقيل– بغض النظر عن هدفه من المسير إلى الكوفة. لقد ارتكب يزيد بن معاوية أول خطأ فادح وأكبر جرم شنيع في عهد أمة محمد، إذ قتل ابن ابنة الرسول الكريم ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب، الأمر الذي هز شعبية يزيد وألب جموعاً غفيرة عليه من الناس. إن مقتل الحسين يعد أكبر الكبائر لكل من ساهم أو آزر أو ناصر هذا العمل الشائن. ولقد تفننت قرائح الشعراء وبكوا حسيناً وآل بيته ورثوه بالمطولات التي لا يسع ذكرها المقام، والتي فاضت بها الكتب التي تناولت الواقعة تاريخاً وشعراً، علماً أن هذا الشعر لم يخلُ من شكوى وتذمر من الأمويين وحكّامهم وأتباعهم.

ويورد السيوطي في تاريخ الخلفاء أنه لما قتل الحسين وبنو أبيه بعث ابن زياد برؤوسهم إلى يزيد فسرَّ بقتلهم أولاً، ثم ندم لما مقته المسلمون على ذلك، ونقضه الناس، وحق لهم أن ينقضوه[٤]. ومن ثم خطا يزيد خطوة أُخرى لاستكمال جرائمه فكانت وقعة الحرّة، بعد واقعة كربلاء[٥]، ومقتل من قتل من آل البيت، عمّ الناس السخط على حكومة الشام، فثار أهل المدينة بعامل يزيد وخلعوه، فسيّر لهم جيشاً اجتاح المدينة وعاث بها فساداً، واستباحها جنوده ثلاثة أيام ارتكبوا فيها أفظع الجرائم، فقتلوا ما يزيد على خمسة آلاف من الناس ونهبوا الأموال، وأحرقوا

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، المصدر السابق، ج٣، ص٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٢٩٤.

(٣) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٦٥.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٦.

(٥) للمزيد عن وقعة كربلاء انظر: الطبري، ج٣، ص٣٠٥ وما بعدها.

البيوت، وفتكوا بحرمة أكثر من ألف امرأة[١]، وأكره أهل المدينة أن يبايعوا على أنهم عبيد ليزيد يصنع بهم ما يشاء، وقتل من رفض البيعة على هذا النحو.

وبعد وقعة الحرة جمع مسلم بن عقبة جيشه[٢] ومن التحق به من الأمويين في المدينة واتجه صوب الكعبة التي لاذ بها عبد الله بن الزبير وسمى نفسه (العائذ بالبيت) بعد أن بايعه أهلها على الخلافة. وفي الطريق مات مسلم، وتولى قيادة الجيش الحصين بن نمير السكوني وحاصر الكعبة وضربها بالمنجنيق حتى انهدم معظم أجزائها واحترقت ستائرها، ثم بقوا محاصرين للبيت عدة شهور، وابن الزبير يقاوم ومن معه من فلول أهل المدينة وأتباعه من أهل مكّة، حتى جاء خبر موت يزيد، فتفرق الجيش وبايع الناس في المدينة ومكة بالخلافة لابن الزبير[٣].

وهنا منعطف آخر في تاريخ الأمة، ففي الشام تولى الخلافة معاوية بن يزيد بعهد من أبيه، ولكنه لم يلبث سوى شهرين أو أقل من ذلك، ثم مات مسموماً[٤]. وبعد معاوية الثاني دبت الفوضى والخلاف في دمشق، وتوسعت الخلافة عبد الله بن الزبير، جراء التنافس داخل البيت الأموي، وبويع له في البصرة والكوفة ومصر وفي جزء من الشام، وذلك في عام ٦٤ هجري[٥]. وهنا لا بد من وقفة نلخص فيها مظاهر الظلم الذي جرى على يد الخلفاء الأمويين من البيت السفياني، أما معاوية بن أبي سفيان (معاوية الأول)، فانتزع الخلافة التي كانت من حق المسلمين والتي أجمع صحابة محمد ﷺ على وجوب كونها في أصحاب "السابقة" الأولين، وعلى قدر عطائهم وخدمتهم للدين، ومواقفهم السياسية من الدولة ودعمها منذ ولادتها، ومن شهد منهم معركتي بدر وأحد، وفتح مكة. ولم يكن من الطلقاء الذين أطلق الرسول سراحهم بعد فتح مكّة، وهؤلاء لم يكن لهم من الأمر شيء. ولكن معاوية، وهو طليق وابن طليق انتزى على الأمة بسفهاء أهل الشام، وانتزع الخلافة منها بحد السيف والخديعة، وبغير مشورة المسلمين، ومن ثم استخلف ابنه وهو سكير خمير يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وولاه أمر الأمة بحد السيف.

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٨، ص٢٦٥.

(٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٦٧.

(٣) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٣٦١.

(٤) المسعودي، **مروج الذهب**، ج٣، ص٨٩.

(٥) الطبري، **تاريخ الطبري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص٣٧٧.

ثم ادعى زياداً بن أبيه وألحقه بنسبه مخالفاً قول الرسول ﷺ: "ومن ادعى لغير أبيه لعنه الله والملائكة أجمعين، الولد للفراش، وللعاهر الحجر"[١]، وثم قتله حجراً بن عدي كما مر ذكره. ولم تكن خلافة ابنه بأقل ضرراً، فلقد اعتدى على بيت الرسول الكريم ﷺ وقتل الحسين ومن معه من أهل بيته، وكفى به ظلماً ما فعل.

ثم اجتراؤه على المدينة المنورة، وأراع أهلها الآمنين، مخالفاً للشرع، واستباح دماءهم ثلاثة أيام، وقتل عدداً كبيراً من المسلمين، ومنهم الصحابة الأجلاء واعتداؤه على أعراض الناس وانتهاك الحرمات، وقد قال رسول الله ﷺ "المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"[٢].

ثم قذف الكعبة بالمنجنيق وحرقها، والاعتداء على الحرم الآمن الذي حرم فيه سفك الدم.

أما البيت المرواني فلقد واجه أموراً صعبة، فعبد الله بن الزبير ثار في الحجاز وبايعته مكّة والمدينة[٣] وامتد نفوذه حتى البصرة والكوفة. وثار المختار الثقفي وأخضع الكوفة والبصرة[٤] مطالباً بدم الحسين بن علي، ولكنه انحرف فيما بعد إلى درجة ادعاء النبوة، واستطاع ابن الزبير أن يقتله في مواجهة عسكرية بينهما[٥].

واصطدم الأمويون أيضاً بحركة التوابين بزعامة سليمان بن صرد، وهي حركة نشأت وثارت لمقتل (الحسين بن علي)، وأطلقت على نفسها هذا الاسم لأنهم تابوا عن خطئهم بعدم نصرة الحسين.

أما عبد الملك بن مروان الذي تسلم الخلافة بعد أبيه فقد وجه جيشاً جراراً بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفي، وحاصر مكّة للمرة الثانية في عهد بني أمية، وقتل ابن الزبير وأعوانه وحملت رؤوسهم إلى الخليفة في الشام[٦].

ومن أهم السمات التي سادت في العصر الأموي –ليس في حكم الأمويين فحسب بل وعهد عبد الله بن الزبير– العنف الشديد وقتل النفوس لأبسط الأسباب، والأخذ بالظِنَّة، وبأقل الكلمات، كان عصراً دموياً بكل تفاصيله. ولكن هذه الشدة كانت تزداد عندما يتعلق الأمر

---

(١) سيرة ابن هشام، من خطبة الوداع، ج٤، ص١٨٣.

(٢) صحيح البخاري، باب من حرم المدينة، حديث رقم ١٨٦٧.

(٣) خالد محمد خالد، **رجال حول الرسول**، د.ط، دار ثابت، د.ت، ص٥٦٠.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٦٧.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٨٣.

(٦) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٧٣.

بالسيادة والرياسة؛ ففي الحادثة التالية التي أوردها الطبري ما يبين ذلك[١]: "لما قُتِلَ المختارُ شاورَ مصعبٌ أصحابه في المحصورين الذين نزلوا على حكمه، فقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس وأشباههم ممن وترهم المختار: اقتلهم. وضجت ضبة، وقالوا: دم منذر بن حسان، فقال عبيد الله بن حر: أيها الأمير ادفع كل رجل في يديك إلى عشيرته تمن عليهم بهم، فإنهم إن كانوا قتلونا قتلناهم، ولا غنى بنا عنهم في ثغورنا، وادفع عبيدنا الذين في يديك إلى مواليهم، فإنهم لأيتامنا وأراملنا وضعفائنا، يردونهم إلى أعمالهم، واقتل هؤلاء الموالي، فإنهم قد بدا كفرهم، وعظم كبرهم، وقل شكرهم. فضحك مصعب وقال للأحنف: ما ترى يا أبا بحر؟ قال: قد أرادني زياد فعصيته -يعرض بهم- فأمر مصعب بالقوم جميعاً فقتلوا، وكانوا ستة آلاف، فقال عقبة:

قتلتم ستة الآلاف صبرا	على العهد الموثَّق مكتفينا
جعلتم ذمة الحبطي جسرا	ذلولا ظهره للواطئينا
وما كانوا غداة دعوا فغُرّوا	بعهدهم بأول حانثينا
وكنتُ أمرتُهمْ لو طاوَعوني	بضرب في الأزقة مصلتينا

ونلحظ هنا مشورة مصعب لمساعديه في القيادة والمشورة بينهم، ليست بأمر سهل ولكن بدماء ستة آلاف من المسلمين أيقتلهم أم يخلي سبيلهم، لقد أراد مصعب عند خروجهم إليه أن يقتل العجم ويترك العرب فكلمه من معه فقالوا أي دين هذا؟ يقتل العجم ويترك العرب ودينهم دين واحد؟ فقتلهم جميعاً[٢].

وهنا تبدو ملحوظة جديرة بالاهتمام، إذ إن المختار بدعوته جمع أكبر عدد من أنصاره من غير العرب، لأنه أراد الانتقام من الأمويين الذين عربوا الدولة الأموية، واعتمدوا على العرب بشكل كبير. وكان ذلك من أسباب نقمة غير العرب عليهم، إذ شعروا بالظلم والاضطهاد، الأمر الذي جعل المختار يعتمد عليهم بصورة أكبر. ويبدو أن هذا ما جعل مصعب يفكر بقتلهم[٣] وترك العرب، فضلاً عن خوفه من مطالبة بعض القبائل بدماء أبنائها إن هو أقدم على قتلهم، في حين أن الموالي قد لا يطالب بهم أحد، وهذا بحد ذاته ظلمٌ آخر يقع على كاهل الرعية من قبل

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩٦

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٧.

(٣) للمزيد حول دور (الخوارج والموالي وغير العرب) انظر: نايف معروف، **الخوارج**، العصر الأموي، ص١٠٧ وما بعدها.

الخلفاء، فقدم المساواة بين الناس تخالف أبسط قواعد الإسلام الذي لم يفرق بين المسلمين إلا على أساس من التقوى.

ونستذكر هنا قول عبد الله بن عمر لمصعب عندما التقيا، فقال له أنت قاتل سبعة آلاف من المسلمين في يوم واحد، ولو قتلت عددهم غنماً من تراث أبيك لكان إسرافاً[١].

وفي العام نفسه الذي قتل فيه المختار وأصحابه قام عبد الله بن الزبير بعزل أخيه عن البصرة وولاها لابنه حمزة[٢]، وهنا لا بد من وقفة تأمل لهذه الظاهرة التي تفشت في حكام ذلك العصر، إذ لا يعهد أحدهم لأحد بعهد إلا من آل بيته، كأنما أمة محمد خلت من أصحاب القدرات والكفاءات القيادية والدينية، فيلجئون إلى أقاربهم لا ينظرون في المصالح العليا للأمة. وهذه تتم عن سوء فهم ديني أو تعمد مخالفة، وفي كلا الحالتين شيء من الظلم والاضطهاد والفساد.

لم يقف الظلم عند قتل الرجال فقد تجاوزه إلى قتل النساء، فهذه عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، وكانت زوجة المختار يسجنها مصعب، ثم يأمر بقتلها بعد استشارة أخيه (الخليفة)[٣]، فقال عمر بن ربيعه القرشي معتبراً هذا الأمر من أعجب العجائب، إذ لم يكتب القتال على النساء، ثم أي ذنب هذا الذي من أجله تقتل هذه المرأة:[٤]

إنَّ مِن أعْجَبِ العجائِبِ عِندِي ... قَتْلَ بَيْضَاءَ حُرَّةٍ عُطْبُولِ

قُتِلَتْ هكذا على غيرِ جُرْمٍ ... إنَّ للهِ دَرَّهـا مِـن قَتِيلِ

كُتِبَ القَتلُ والقِتَالُ علينا ... وعلى المحْصَنِاتِ جَرُّ الذُّيولِ

وينبري سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت من قصيدة طويلة يستنكر ما أقدم عليه مصعب من قتله هذه المرأة المسلمة، يستذكر أصلها وسابقة أبيها في الدين وكريم أخلاقها وصحبة أبيها للرسول الكريم، ثم يدعو على آل الزبير بسوء المعيشة والحرب، ثم يسأل مستنكراً: إذا كان مقتلها سيورثهم ملك العرب، ويؤكد أن القتل والقتال لم يكتب على الغواني، معتبراً ما آلت إليه نهايتها من أعجب العجائب.

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩٤.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٦٩.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٤٩٧.

(٤) محمد محيي الدين، عبد الحميد، **شرح ديوان عمر بن أبي ربيعه**، دار الأندلس، د.ت.

فقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في ذلك[1]:

أتى راكـبٌ بالأمر ذي النَّبَإِ العجبْ ... بقتل ابنَة النعمان ذِي الدِّين والحَسب

بقتـل فَتـاة ذاتِ دلٍ سَتِيـرَةٍ ... مُهَذَّبَةُ الأَخـلاقِ والخيـم والنسـبْ

مطهَّـرةٍ من نَسْل قـومِ أكـارمٍ ... مِنَ المُؤْثِرين الخيرَ في سـالفِ الحِقَب

خليـلُ النبيِّ المصطفَـى ونَصيـرُهُ ... وصاحبُه في الـحَرْب والنَّكْبِ والكُـرَب

أتاني بـأنَّ المُلْحدين تَـواقَفـوا ... عـلى قَتِلِـها لا جُنِّبُوا القتـلَ والسَّـلَبْ

فـلا هَنَأَتْ آلَ الـزبير معيشـةً ... وذاقُـوا لباسَ الذُّلِّ والـخوفِ والحَرَبْ

كَأَنَّهـمُ إذ أبـرَزوهـا وقُطِّعَـتْ ... بأسيافِهِـمْ فـازُوا بِمَملـكـةِ العَـرَبْ

ألم تَعجَبِ الأَقـوامُ مـن قَتلِ حُرَّةٍ ... من المُحْصَنَات الـدّين مـحمودة الأدبْ!

مـن الغافـلاتِ المؤمنـاتِ، بَرِيئةٍ ... من الـذَّمِّ والبُهتـانِ والشَّـكِ والكذِبِ

علينا كتابُ القَتلِ والبـأسِ واجـبٌ ... وهُـنَّ العَفَافُ في الحِجَال وفي الـحُجُبِ

على دِيـنِ أجـدادٍ لهـا وأبـوَّةٍ ... كِـرامٍ مضَت لـم تُخْزِ أهلاً ولـم تُـرِبِ

مـن الخَفِـرَاتِ لا خُـرُوجٌ بذِيَـةٌ ... مُـلائِمَة تَبغِي عـلى جَـارِهَـا الـجُنُبِ

ولا الجارِ ذي القُرْبَى ولم تَدْرِ ما الخنا ... ولـم تزدَلِف يـوماً بسُـوءٍ ولـم تـحبِ

عَـجِبْتُ لهـا إذ كُفِّنتْ وَهـيَ حَيَّـةٌ ... ألاَ إنَّ هـذا الخَطْبَ مـن أعجَبِ الـعَجَب

لقد بالغ الزبيريون في معاقبة المختار، ويبدو أن المختار انزلق إلى هاوية مـن الأفكـار المجانبة للدين؛ إذ بعد مقتل "سليمان بن صُرَد" وجماعته على يد قوات الأمويين[2]، تفرد المختـار بزعامة أشياع آل البيت ودعا دعوة صريحة لابن الحنفية (وهو ابن علي بن أبي طـالب)، مـن امرأة من بني حنيفة، وتشكلت حوله فرقة شيعية عرفت فيما بعـد بالكيسـانية، وقـامت هـذه النظرية على أن الرسول ﷺ أوصى بالخلافة بعده لعلي؛ وهي ليست مفوَّضة للأمـة، بـل هـي الوصية في علي وأبنائه المعصومين من الأئمة انتقالاً بطريقة النص. وكانوا يغالونَ في تصويـر

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ص٤٩٤ + ٤٩٥.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٤٢٣.

علي، حتى زعم أن به قبساً إلهياً ورثه عن الرسول ﷺ، وهو ينتقل من بعده في الأئمة واحداً تلو الآخر[١]، وبذلك شاعت فكرتا الحلول والتناسخ، وأن علياً سيعود يملأ الأرض عدلاً أو ما يعرف بفكرة (الرجعة)، وهذه الأفكار بمجملها تلاقح بين الكيسانية والسبئية، المنسوبة لعبد الله بن سبأ[٢]. وزاد المختار على هذه الأفكار شعوذات كثيرة[٣]، من ذلك قوله بالبدء على الله: "أي أن له أن يعدل في الأحكام كلما بدا له التعديل..." (تعالى الله)، واعتنق هذا المبدأ لأنه كان يدّعي علم ما يحدث من الأحوال بوحي يوحى إليه. فكان إذا وعد أصحابه بحدوث شيء، فإن حدث، جعله دليلاً على صدقه، وإن لم يحدث يقول: قد بدا لربكم. وكان يزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر، وكان يتكهن بالأسجاع، واتخذ لأشياعه كرسياً غشّاه بالديباج، وقال لهم إنه من ذخائر أمير المؤمنين علي وهو منكم بمنزلة التابوت في بني إسرائيل، وكان يرسل حمامات بيضاء على جيوشه زاعماً أنها ملائكة تنزل لدعمهم من السماء، وفي ذلك يقول سراقة البارقي[٤]:

ألا أبلغ أبا إسحاق أني ... رأيت البُلقَ دهماً مصمتات

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً ... عليّ قتالكم حتى الممات

وفي أمر الكرسي يقول المتوكّل الليثّي[٥]:

أبلغ أبا إسحاق أن جئته ... إني بكرسيكم كافرُ

تنزو شبام حول أعواده ... تحمل الوحي له شاكرُ

وشبام وشاكر هما من حملة هذا الكرسي المزعوم.

قال أعشى همذان أيضاً[٦]:

واقسم ما كرسيكم بالسكينة ... وان كان قد لُفّت عليه اللفائف

وأني امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيا ضمنته المصاحف

---

(١) شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) الشهرستاني، **الملل والنحل**، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص١١٠.

(٣) الشهرستاني، **الملل والنحل**، المصدر السابق، ص١١٠، وما بعدها.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٤٦١.

(٥) المصدر السابق، ج٣، ص٤٧٧.

(٦) **ديوان الأعشى**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، ص٩١.

تابعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش سخطها والقطارف

لقد تفشى خطر المختار، وأصبح يمس العقائد، وهذا بدوره جعل السخط يزداد عليه، وكانت عقوبة ابن الزبير له بقدر خطره، والضحية بطبيعة الحال المسلمين، سواءً من خُدِع منهم بأمر المختار، أو من قتل على يد الزبير فيما بعد. ويعد هذا الأمر مما يثير الشكوى والتذمر في صفوف الناس عامة.

بعد تصفية المختار من قبل ابن الزبير كان الأمويون يتربصون الدوائر لمن ينتصر، فوقع الخيار على ابن الزبير الذي بعث له عبد الملك جيشاً جراراً بقيادة الحجاج، وتمكن من إخضاع مكّة بعد قتل ابن الزبير. وبسقوط مكّة، دانت الحجاز وكافة أطراف الدولة للحكم الأموي بقيادة (البيت المرواني)، أبناء مروان بن الحكم، فكان محاصرة الكعبة الشريفة والحرم. وضربها بالمنجنيق وحرقها وسط هتافات جيش الحجاج في العام ثلاثة وسبعين للهجرة، وكان ذلك الجيش بقيادة الحجاج الذي كافأه عبد الملك فيما بعد بأن ولاّه الكوفة عام ٧٥هـ يسوم أهلها سوء العذاب.

وأورد السيوطي في الأوائل عن عبد الملك، أنه أول خليفة بخل وكان يسمى (رشح الحجارة)، وهو أول من غدر في الإسلام، وأول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن المعروف؛ فكان مروان بن الحكم ولي لعهد عمر بن سعيد بن العاص بعد ابنه، فقتله عبد الملك، وكان قتله أول غدر في الإسلام ونكثٍ لعهد الله[(١)].

لقد تابَع عبد الملك نهج الأمويين من آل سفيان بالظلم، وكان شديد الفتك والبطش بكل من يحاول الاقتراب من أمر الخلافة، أنظر قوله في إحدى خطبه: "ألا وإنا نحملُ لكم كل شئ إلاّ وثوباً على أمير أو نصب راية، ألا وإن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرُ بن سعيد عنديَ والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه"[(٢)].

ثم إن عبد الملك أرسل جيشاً -كما أسلفت- دكَّ الكعبة بالمنجنيق، وقتل من أهلها مَنْ قتل، واستباح حرمات الدماء والحرم الآمن المحرم القتال فيه. كل هذه السياسات والتي كانت بدافع الحفاظ على الزعامة، كانت انحرافاتٍ واضحة، وخروجاً على نصوص الدين.

---

(١) السيوطي، **نقلاً عن كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي**، ص١٦٤.

(٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، المصدر السابق، ص١٧٥.

ويقول السيوطي في أمر عبد الملك، "لو لم يكن من مساوئ عبد الملك إلا الحجاج، وتوليته إياه على المسلمين وعلى الصحابة رضي الله عنهم، يهينهم ويذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً. وقد قتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى، فضلاً عن غيرهم وختم على عنق أنس وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي، يريد بذلك إذلالهم، ودسَّ إلى ابن عمر من طَعَنَه بحربة مسمومة"[١].

وختم عبد الملك حكمه بتسليم ابنه الوليد بن عبد الملك الخلافة، الذي عُرِفَ عنه الإنحراف عن جادة الصواب؛ وهذا ما سوفَ نتحدث عنه في الصفحات القادمة.

لقد كانت سنوات حكم عبد الملك، سلسلة حلقاتٍ كان الظلمُ فيها والاستبداد من أوضح الصور وأكثرها عمقاً. فهذا السيوطي يورد أبياتاً من الشعر لم ينسبها لشاعر عن عبد الملك[٢]:

يــا قوم لا تغلبو على رأيكم فلقد	جَرَّبتم الغدر من أبناء مروانـا
أمسوا وقد قتلوا عَمْراً ومــا رشدوا	يَدْعون غدراً بعهد الله كَيْسانا
ويقتلــون الرجــال الـبُزلَ ضاحية	لــكي يُوَلُّوا أمورَ الناس وِلْدَانا
تــلاعبــوا بكتــاب الله فــاتخــذوا	هــواهُم في معاصي الله قرآنا

ولسنا نهتم كثيراً بقائل هذه الأبيات، فما يهم منها تصويرها لضمير الجماعة الإنسانية القابعة تحت مطرقة الظلم، والأبيات توضح ضجر الشاعر والناس من حكم أبناء مروان، والشكوى من غدرهم بأقرب الناس منهم، وهو يتندر بهم إذ اعتبروا قتل هذا الرجل من الكياسة والفطنة مع ما أُعطي من عهد الله بأن دمه مصان. ولم يكن ذلك إلا من أجل استبدال الأشداء من الرجال بالولدان من أقاربهم، وإنهم ومهما حاولوا تبرير مواقفهم -المنحرفة- هذه فهي أهواء وإن جعلوها قرآناً. ويكشف أساليبهم المخالفة لشرع الله بنكثهم العهد والميثاق الذي أعطى الأمان لمسلم ثم لم ينفذه.

لم يتورع عبد الملك -شأنه شأن جُلّ خلفاء بني أمية- من استباحة دماء المسلمين، ويزداد الأمر عندما يتعلق بالخلافة. وهو نفسه يعترف بذلك بعد قتله مصعباً "والله كانت الحرمة بيننا وبينه قديمة ولكن هذا الملك عقيم"، وفي مقتل مصعب أيضاً قصائد طويلة، منها ما قاله ابن قيس الرقيات يشكو سوء فعال الخليفة، مستنكراً وقوف بكر بن وائل، وخذلان تميم للمصعب[٣]:

---

(١) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، المصدر السابق، ص١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٥.

(٣) **ديوان ابن قيس الرقيات**، تحقيق: محمد يوسف نجم دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، ص١٩٦.

لَقَدْ أَوْرَثَ المِصْرَيْنِ خِزْياً وَذِلَّةً ... قـتل بدير الجاثليق مقيـــمُ

فَمَـا نَصَحَتْ لِله بَكْرُ بـنُ وائِلٍ ... وَلا صَبَرَتْ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَمـيـمُ

وَلَو كـانَ بَكْرِيّاً تَعَطَّفَ حَوْلَـهُ ... كتَـائبُ يغْلِي حَمِيُـها وَيَـدُومُ

وَلَكِنَّهُ ضَاعَ الذمّـامُ وَلَم يَكُنْ ... بِهـا مُضَرِيٌّ يَـوْمَ ذَاكَ كَـرِيـمُ

ولكن أجود ما أفصح به ابن قيس من شعرٍ شكا به بني أُمية وعابَ عليهم سياستهم التـي نقلـت مركز النقل السياسي من المدينة إلى الشام، ومن قريش إلى القبائل العربية، هي تلـك القصيـدة التي قالها في مدح مصعب ابن الزبير، والتي نفث فيها ومن خلالها كل ما اعتصـره مـن ألـم سببته السياسة الأموية[1]:

أَقْفَرَتْ بَعْدَ عَبْدُ شَمْسٍ كُـــدَاءُ ... فَكَدَيُ فَالرُّكْنُ فَالْبَطَحاءُ

فَمِنىً فالجَمارُ من عَـبْدِ شَمْـسٍ ... مُقْفِراتٌ فبلدحٌ نحـــراء

فالخيامُ التَّي بِعُسفَانَ فَالجُحـــ ... فَةُ مِنْهمُ فالقَاعُ فَالأبْوَاء

مُـوحِشَاتٌ إلى تعاهن فالسُّقْيـا ... قِفَارٌ مِنْ عَبْد شَمْسٍ خَلاءٌ[2]

ففي هذا المطلع الشّعري يذكر الشاعر أسماء المواضع والأماكن الدينية، والتي كانت مرتبطة بـإدارة الدولة السياسية، فمنه المنطلق في تأسيس الدولة الإسلامية الأولى كل هذه الأمكنة أصبحت الآن خالية، بعد أن كانت محط أنظار الناس كافة –من الناحية السياسية– ولم يكن ذلك إلا لسبب سياسة الأمويين بنقل مركز الخلافة إلى الشام. ويستطرد الشاعر في قصيدته بعد ذلك هذه الرموز، إلى ما أدت إليـه من الأمور من شتات وضياع وفرقة في العشيرة، ويتمنى عودة الماضي:

حبذا العيشُ حين قومي جميعاً ... لم تفرقْ أمورها الأهواء[3]

وهذا التفرق –كما يراه الشاعر– سوف يزيد مطامع الناس بملك قريش، وتكالب النـاس عليـها وتفنيها[4]:

---

(١) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص٨٧.

(٢) كداء، كدي، الركن، البطحاء، منى، الجمار، بلدح، حراء، عسفان، الجحفه، الابواء، تعاهن، السقيا... أسماء أماكن في مكّة وحولها والمدينة المنورة.

(٣) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص٨٨.

(٤) الخفاجي، مرجع سابق، ص١١.

قَبْلَ أنْ تَطْمَعَ القَبائِلُ في مُلْكِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الاعْداءُ

أيُّها المُشْتَهِي فَناء قُـــرَيْشٍ بيَدِ اللهِ عُمْرُهَا وَالفَنَــاءُ

ونلحظ هنا شكوى قوية جداً، إذ إن انقسام قريش وفناءها، سيغني بعدهـــم كـل الأحيـاء العربية، فقريش كما يراها الشاعر، لا تصلحُ إلا عليهم العربُ[١]:

أنْ تُــودِّع مِنَ البِلادِ قُرَيْشٌ لا يَكُنْ بَعْدَهـم لِحَيٍّ بَقـاءُ

لَوْ تُقفَى وَتَتْرُكُ النَّاسَ كانوا غَنَمَ الذِّئبِ غَابَ عَنْها الرِّعاءُ

ثم يمضي الشاعر بقصيدته معدداً فضائل قريش، وأن فيها النبي ﷺ وأبا بكر الصديق والخلفـــاء، ويذكرُ في قصيدته الكثير من أعلام العرب والشهداء والقادة. وإن كانت القصيدة ظاهرها مـــدح ابن الزبير، إلاّ أن الشاعر لم يكن ليحفل به لو لم يكن قُرشياً، فابن الرقيات متعصـــب لقريـش، بدليل أنه في وقتٍ لاحق اصطلح مع الأمويين، ومدحهم بقصائد طويلة[٢].

وفي نهاية القصيدة يتمنى الشاعر لو تعود الأمور إلى مجاريها[٣]:

عَيني فَابْكي على قُرَيْشٍ وَهلْ يرُ جِعُ مَا فَاتَ إنْ بَكَيت البُكَاءُ

غير أن الشاعر يشكو ظلم الأمويين وما أحلوه من نكبات، وفي القصيدة نفسها يقول:

مِثْلُ وَقْــعِ القَدومِ حَـلَّ بِنا فالنّا سُ مِمَّا أصابَنَا أخْـلاءُ

لَيْس للَّهِ حُـــرْمَةٌ مِثْـلُ بَيْــتٍ نَحْنُ حُجّابُهُ عَلَيهِ المُـلاءُ

خَصَّه الله بِالْكَـرامةِ فالبـادُو نَ والعاكِفُونَ فيـه سَـــوَاءُ

حَـرّقَتْهُ رِجـــالُ لَـخمٍ وعَكٍّ وَجُذَامٌ وحِمْيَرٌ وَصُـــــدَاءُ

فهذا بيت الله الحرام نحن خدامه، وخَصّه الله بالكرامات، يذكر فيه اسم الله ويعبد، جـــاءت رجالُ القبائل الشامية من لخم وعك وجذام وحمير وسواها أحرقته، فهذه الشكوى ممزوجة بيـــن الدافع الديني، والمتمثل بانتهاك حرمة الله والبيت الحرام، والدافع القبلي المتمثل بالقبائل العربيـــة التي لا تضاهي قريشاً -من وجهة نظر الشاعر- يأتون من الشام يستحلون دماء قريش.

---

(١) الخفاجي، **الحياة الأدبية**، مرجع سابق، ص٩١.

(٢) انظر قصائد المديح للخلفاء الأمويين في ديوان ابن قيس ص٧١ + ١٢، ص٩٩.

(٣) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص٩٤.

وقصيدته طويلة تنوف عن الخمسين بيتاً يستثيرُ في أبياتها الأخيرة همم الرجـــال ليشـــملوا الشامَ بغارة شعواء تذهلُ الشيخ عن بنيه وتهرب العذراء، وتفصح عن همٍ يحرمه النوم لا يزيلـــه إلا هذه الغارة[١]:

كَيفَ نَومِي عَلى الفِرَاشِ ولَمّا يَشْمَلِ الشّامَ غَارة شعواءُ

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عن بَنيهِ وتُبدِي عن بُرَاها العقَيلَةُ الــعَذرَاءُ

وفي آخر بيت من القصيدة يبين الشاعر سياسته تجاه بني أمية فهو مُزْوَرّ عنهم وهـــم أعـــداؤه، وإن قتلهم للحسين في الطف أوجع قلبه وأدماه[٢]:

أنا عَنْكُم بَني أُمَيّة مُـــزْوَرٌ وَأَنْتُمْ في نَفسيَ الأعْـداءُ

إنّ قَتلَى بالطَّفِّ[٣] قَد أوجعنني كانَ مِنْكُم لَئِن قُتِلْتُمْ شِفاءُ

لقد ارتكزت شكوى ابن قيس من الأمويين على محاور عدة، أهمها نقـــل الســـيادة مـــن قريش إلى قبائل الشام[٤] ومن ثمّ سياسات الأمويين الدينية، وضرب الكعبـــة وإحراقـــها، وقتـــل الحسين بن علي، كل هذه السياسات في نظر الشاعر ستزيلُ قريش عن سدّة الحُكم.

لم يقفْ ابن قيس عند حدّ الشكوى، فلقد نهج نهجاً جديداً ليبدي سخطه على الأمويين بمـــا يُعرف بالغزل الكيدي، فكان الغزل بنساء خصومه الأمويين أحد وسائله في إثارتـــهم والانتقـــام منهم، وإبداءِ ذات نفسه تجاههم، وقصائده من هذا النوع كثيرة تحسب في باب الغزل والـــهجاء، ولعل أشهرها غزله بأم البنين زوج الوليد بن عبد الملك وبنتُ عبد العزيز بن مروان[٥]، وغزلـــه فيها كثير. وقد اتخذ الغزل وسيلة لهجاء الأمويين وإظهار الشكوى منهم، وهو ما يعرف بـــالغزل الكيدي[٦]، وإن كانت مضامينها توحي بشكوى الشاعر من الأمويين.

إن وقفة متأنية بقصائد ابن قيس الرقيات، لتكشفُ لَنا عن بابٍ جديد للشكوى من حكـــام بني أمية، وهي أن الأمويين قد أرسوا دعائم حكمهم على تخاصم الآخرين؛ فكان الحاكم الأمـــوي يُثير الخلاف بين القبائل لتبقى في حالِ تشرذمٍ وخلاف، ويكون الأمويون هم الحل الأمثل؛ فـــابن

---

(١) ديوان ابن قيس الرقيات، المصدر السابق، ص٩٥.

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات، المصدر السابق، ص٩٦.

(٣) يشير إلى الطّفّ: وهو مكان في كربلاء من ضواحي الكوفة قتل فيه الحسين بن علي وأهل بيته.

(٤) الخفاجي، **الحياة الأدبية**، مرجع سابق، ص٩٩ .

(٥) هامش ديوان ابن قيس الرقيات، تعليق: محمد يوسف نجم، ص٥٢.

(٦) شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٢٩٧ وما بعدها.

قيس الرقيات، يستنكر من الأمويين اعتمادهم على القبائل العربية في الشام، لتوطيد حكمهم واتخاذهم وسيلة لضرب المناوئين لهم، فإنهم أول من بدأوا به أهل المدينة ومكة وبالتالي قريش.

يقول الخفاجي[١]: "عمل معاوية على إيقاع الخلاف بين القبائل المختلفة وضرب بعضها البعض، وتحريض بعضها على الآخرين، وبذلك إحياء للعصبية القديمة التي حاربها الإسلام ورسوله وكتابه الكريم، كما حاربها أبو بكر وعمر طوال عهد خلافتهما رضوان الله عليهما".

وحقاً يُعدُّ معاوية من دهاة العرب المعدودين؛ فلقد أحكم سيطرته على الأمور بدهائه وحيلته.

لم يكن معاوية يثق بأهل مكّة والمدينة لانحياز زعمائها إلى بيت الرسول ﷺ، ولا بالعرب المقيمين في البصرة والكوفة، لأن الكثير منهم (شيعيون)، ولكنه جهد في استمالة العرب القاطنين في بلاد الشام وعلى مشارفها، كما جهد في استمالة القبائل اليمنية، وتزوج من إحدى بطونها من قبيلة كلب أم ابنه يزيد، كما جهد في استمالة بعض القبائل الأخرى[٢].

لقد اجتاحت الدولة الأموية تيارات متصاعدة من الأحزاب السياسية: الخوارج والعلويين والزبيريين، كما أن الدولة الأموية كانت عربية خالصة، مما أثار حفيظة الموالي عليها وكرههم لها[٣]، فما كان من الحزب الحاكم (الأموي) إلا اللجوء إلى سياسة التفريق وضرب القبائل بعضها ببعض. كما أن الحركة القومية التي ظهرت كرد فعل للسياسة الأموية، التي قست على الموالي، واغترت بكل ما هو عربي[٤] كانت سبباً آخر، وحفز الأمويين على القيام بهذه السياسات التفريقية؛ فكان معاوية يوعز إلى المغنين بإنشاد الشّعر الجاهلي الذي تهاجت به القبائل قبل الإسلام. وقد دس إلى كعب بن جعيل وأمره بهجاء الأنصار، فدله على الأخطل، وقال معاوية للأنصار الذين ثاروا بسبب هجاء الأخطل: لكم لسانه إلا أن يكون يزيد قد أجاره ودسّ إلى يزيد أن يجيره[٥].

وكذلك ساد معظم الخلفاء والأمراء الأمويين، فهذا عبد الملك يستمع للأخطل التغلبي وهو يمدحه في قصيده طويلة، يقول في أحد أبياتها على مسمع الجحاف القيسي.

ألا سائل الجَحَافَ هَل هُو ثائرٌ   بِقَتْلَى أُصيبَتْ مِنْ سلَيْمٍ وعَامِرِ!!

---

(١) محمد عبد المنعم الخفاجي، **الحياة الأدبية في العصر الأموي**، ص١٠.

(٢) الخفاجي، **الحياة الأدبية**، مرجع سابق، ص١٠.

(٣) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٣.

(٤) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، المصدر السابق، ص١٠٠.

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، طبعة الساسي، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٣٢٢هـ، ج١٥، ص١٢٠.

وهو يقصد يوم الكحيل الذي كان بين قيس وتغلب؛ فلم يحاول عبد الملك نزع فتيل الأزمة التي اشتعلت في بلاطه بل علّق ساخراً: "ما أحسبك إلاّ قد أكسبت قومك شراً وهذا فعلاً ما تمَّ، إذ نشبت صراعات بين الطرفين، وكان من ورائه سياسة عبد الملك التي أوقعت بينهما[١].

إن الأمثلة الواردة في كتب التاريخ كثيرة جداً، وهي تثبت بجلاء السياسات الأموية في زرع الفتن وإثارة النعرات بين القبائل، لتبقى الأسرة الحاكمة هي القاضي والخصم. وهذه السياسات تتنافى مع أبسط قواعد الإسلام، الذي حارب العصبية ونقل الولاء من الطاعة العمياء للعشيرة إلى طاعة الله وحده[٢]، وولي الأمر ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣]، ودعى إلى الاعتصام بحبل الله ونبذ الفرقة التي كرسها الحاكم الأموي ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾[٥]. ونقل الإسلام القبائل المتفرقة إلى دولة دستورها القرآن وإفرادها أخوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٦]. وهذا ما جهد الحاكم الأموي لاستبعاده حينَ فرق بالتعامل مع مواطني الدولة، فقدمَ العرب على سواهم ونظر إلى الموالي نظرة احتقار[٧]، وأوغر صدور شعراء القبائل العربية وزعمائها ضد بعضهم البعض[٨]، إحياء للعصبية القبلية التي هدمها الإسلام.

وها هنا ابن همام السلولي، مملوء بالغيظ من البيت الأموي لا يكفيه شرب دمائهم، فقد أضاعوا الرعيّة، وانحرفوا بالحكم صوب الكسروية الوراثية، ويلقي ابن همام سلاحه مستسلماً بالمبايعة للوارث القادم أياً يكن، العم السمين أو حتى إن كانت إحدى نساء بني أُمية (هندٌ أم معاوية أو رملة أم يزيد) فكلهم نرضاه أميراً للمؤمنين؛ وهي صورة تهكمية، فليس ثمة كرامة ولا أنفة لدى الناس ليرفضوا، ويتلهف الشاعر بمرارة وأسى على أُناسٍ أشداء يعيدونَ الأمويين إلى مكّة يلحسون بها (السخينا) كما كانوا قبل مبعث الإسلام الذي سخره الأمويون، وأصبحوا ملوكاً على رقاب العباد يقول[٩]:

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، المرجع السابق، ج١٢، ص ١٩٩- ٢٠١.

(٢) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، مصر، د.ت، ص ١٣٤ وما بعدها.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

(٤) سورة المائدة، الآية ٩٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٦) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(٧) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام**، النهضة المصرية، ج١، ١٩٦٤م، ط٧، ص٣٤٢.

(٨) الخفاجي، **الحياة الأدبية**، مرجع سابق، ص١٠.

(٩) ديوان السلولي، مصدر سابق، ص ١٠٥- ١٠٦.

لقد ضاعتْ رَعيَّتُكمْ لديكـــــم تـــدَرّون الأرانِبَ غافلينـــــا[١]

إذا ما ماتَ كِسْرى قـامَ كسـرى نعدُّ ثلاثـــةً مُتَتَابعينـــــا

وكـلُ الناسِ نـحنُ مُبَايعُـــوه وإنْ شئتم فعمّكـــم السمينا

وإنْ جئتـم برمـلة أو بـهنـدٍ نُبَايعُهـا أميـــرة مؤمنينـا[٢]

نثبت ملكَكُمْ وإذا أرَدْتُـــــم بنـا الصلعاء قلنـا مُخْبتينا[٣]

فيا لهفي لـو ان لنا أُنـــوفاً ولكـنْ لنْ نعـودَ كـما غنينـا

إذا لَضُرِبتُـم حتّى تعـــودوا بمكّـة تلْحسون بها السَّخيـنا[٤]

حُشينا الغيض حتّى لـو شَرِبْنا دِمـاء بني أُميــه ما رَوِينـا

وابن همام متقلب المزاج وقد وصف بالنفاق السياسي[٥]، فقد كان على علاقـة طيبـة مـع آل حرب[٦] ثم مال مع ابن الزبير وانقلب عليه وفيه يقول[٧]:

وقد جرّب الناسُ آل الزبير فلاقَوْا مِنَ آل الزَّبير الزَّبيرا[٨]

وعندما آلت أمور الكوفة للمختار الثقفي وقف إلى جانبه وامتدحه بقصيده طويلة، وثق فيها خـط سير الثورة وأسبابها، وحدد منطلقاتها الفكرية، وذكر القبائل التي آزرت المختار. ويبدو أن ابـن همام ما قاله الفرزدق تكون مع الواحد منهم ما دام الله معه، فإذا تخلّى انقلبنا عنه[٩] ولو صـدق هذا التجسيد فنحن إذاً أمام شكوى غير دقيقة، ولكن غزارة الإنتاج الشعري المتضمـن الشـكوى تؤكد بما لا يدع محلاً لشك، بجدية الظاهر وقوتها في تلك الآونة.

---

(١) تدرون: تقيدونَ.

(٢) رملة: ابنة معاوية، هند أمّه.

(٣) الصلعاء: الصحراء، مخبتينا: طائعينا.

(٤) السخين: طعام يُتخذ من دقيق وسمن كانت قريش تكثر من أكلها.

(٥) مقدمة محقق ديوانه، جمع وتحقيق: وليد محمد.

(٦) مقدمة محقق ديوانه، المرجع السابق، ص٣٣.

(٧) مقدمة محقق ديوانه، المرجع السابق، ص٣٨.

(٨) الزّبير: الكدر: لسان العرب مادة (زَبَدَ).

(٩) أبي الفرج، **الأغاني**، دار الكتب، ج٢١، ص٣٩٩.

وعبد الله بن الزبير الأسدي[١] يخاطب معاوية متظلماً وشاكياً من إحساسه بالظلم والهلاك[٢]:

معاوي إننا بشرٌ فأسجـــح   فلسنـــا بالجبالِ ولا الحـــديـــد[٣]

فهبنا أمة ذهبتَ ضيــاعاً   يزيد اميرهــا وأبــو يزيــد

أكلتم أرضنا وجردتموهـــا   فهل من قائمٍ أو مــن حصيد[٤]

أتطمع في الخلود إذا هلكنــا   وليــس لنا ولا لك مــن خلــود!!!

أكلتم أرضنا و(جردتموها)، هذا أوصلنا إلى الهلاك فهل هلاك الأمة يقابله خلود الحاكم؟ استفهام استنكاري يضع كل تصرفات الحكّام موضع شجب ورفض.

والكميت بنُ الأسدي[٥] في إحدى هاشمياته[٦] يصبُ جام غضبهِ على الأمويين[٧]

فقل لبني أُميه حيثُ حلّــوا   وإن خفت المهند والقطيعـــا[٨]

ألا أف لــدهرٍ كنت فيـــه   هِداناً طائعاً لكــم مطيعـــا

أجــاعَ الله مَنْ اشبعتموه   وأشبع من بجوركــم أجيعـــا[٩]

ويلــعن فذّ امته جهــاراً   إذا ســاس البرية والخليعـــا[١٠]

يبعثُ برسالة إلى بني أُمية مع علمه المسبق بأنهم سيؤذونه بالسيف أو السوط، لو تمكنــوا منــه، يتذمر من دهرٍ حكم فيه هؤلاء وهو مطيعٌ لهم، ثم يدعو على كل من والاهم، ويدعو لمن نــاوأهم ويخرجُ إلى لعن أولهم معاوية بن أبي سفيان، وأحد آخر حكامهم الوليد "الخليع". ففــي الأبيــات شكوى من ظلمهم وهي تشفُ عن عدم المساواة بين الناس، إذ إن أنصــار الأمويين مشــبعون وسواهم جياع.

---

(١) شاعر مخضرم (ت٦١هـ)، انظر ترجمة البغدادي، **خزانة الأدب**، تحقيق: عبد السلام محمد هــارون، دار الكتاب، ١٩٦٧، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) عبد الله بن الزبير الأسدي، **ديوانه**، ت: يحيى الجبوري، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحريــة، بغداد، ١٩٧٤.

(٣) اسجع: أرفق.

(٤) جردتموها: قشرتموها.

(٥) هو الكميتُ بن زيد المعروف بالأسدي، شاعر أموي عاش بين (٦٠-١٢٦هـ)، **ديوانه**، جمــع وتحقيــق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨.

(٦) كان متشيعاً لبني هاشم وله فيهم قصائد كثيرة سميت نسبةً لهم بالهاشميات، **الديوان**، ص٤٨٧.

(٧) **ديوان الكميت**، المصدر السابق، ص٦٢٤.

(٨) القطيع: السوط.

(٩) بَجورْكم: بظلمكم.

(١٠) فذَ: (أراد معاوية أبن أبي سفيان) الخليع: أراد الوليد بن عبد الملك.

الباب الأول

الفصل الثاني

الشكوى من ولاة العهد

بعد اغتيال علي بن أبي طالب وتنازل الحسن بن علي عـــن الخلافـــة عـــام (٤١هـــ)، استقامت الأمور وآلت برمتها إلى معاوية بن أبي سفيان، وسمي ذاك العام (عام الجماعـة)[١]، أي اجتماع كلمة الأمة على إمام واحد (خليفة المسلمين).

ساد معاوية الأمة بين شدة ولين، ولم تكن تنقصه الحيلة فهو أحد دهاة العرب المعدوديـــن، استمال بعض الناس بالمال، وبعضهم بالمناصب السياسية، وغيرهم بـــاللين، وســـواهم بالشـــدة، وتنعم معاوية بالملك سنوات طوال، وأراد أن يجعل الخلافة ملكاً خاصاً ببني أمية، فقرر توريثـــها لابنه يزيد وأخذ تحضيره لذلك سنوات عديدة..."[٢].

وهذا ما أكده أيضاً صاحب العقد الفريد : "فلم يزل يروض (أي معاويـــة) النـــاس لبيعتـــه يشاور ويعطي الأقارب ويدني الأباعد...". ونقلاً عن أبي الفرج الأصفهاني "أراد معاوية أخـــذ البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيئاً أثقل عليه من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقـــاص، فـــدس إليهما السم فماتا"[٣].

لقد كان معاوية مدركاً لخطورة الموقف، إذ أنه مرتبط بعهد ووثيقة تنص على أن يكـــون الأمر من بعده للحسن بن علي وليس له أن يوصي لغيره؛ هذا من جانب، وفي الجانب الآخـــر، فإن سعد بن أبي وقاص، وهو من كبار الصحابة وقادة الفتح، وهو آخر من بقـــي مـــن مجلـــس الشورى الذي عينه عمر بن الخطاب قبل وفاته، كان ما زال على قيد الحياة وهـــو أولـــى مـــن أبنائه.

كما أن يزيد لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان شاباً ماجناً مدمناً على الخمر، واللعـــب مع الكلاب والقرود، وعديم الخبرة والكفاية لقيادة الأمة[٤]، كل هذه الأسباب دعت معاويـــة إلـــى أخذ البيعة لابنه من الناس قبل موته[٥].

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٤.

(٢) إبن عبد ربه الاندلسي، **العقد الفريد**، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د.ت، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٠.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، **مقاتل الطالبين**، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، ط٢، بيروت، مؤسســة الأعلمــي للمطبوعات، ١٩٨٧، ص٤٣.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٣٢.

(٥) المصدر السابق، ص٢٤٧.

قال الحسن البصري: أفسد أمر الناس اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار إلى معاوية برفع المصاحف، فحملت، ونال من القراء وحكم الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والمغيرة بن شعبة، فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه فلما ورد عليه قال: ما أبطأك؟ قال: أمر كنت أوطئه وأهيئه، قال: وما هو؟ قال البيعة ليزيد من بعدك، قال: أو قد فعلت؟ قال: نعم، قال: ارجع إلى عملك، فلما خرج قال له أصحابه ما وراؤك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غيٍّ لا يزال فيه إلى يوم القيامة، قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى بين المسلمين إلى يوم القيامة[١].

لقد كان معاوية يضمر البيعة لابنه ولكن الظروف المحيطة به لم تكن لتساعده، صراع على السلطة دام سنين عديدة ومعارك كبيرة، وإغارات على المناطق التي كانت خاضعة لسلطان علي بن أبي طالب، ولم يستقم الأمر لمعاوية إلى بعد عام (٤٠هـ).

في بادئ الأمر عزم معاوية إسناد ولاية[٢] العهد لابنه وكتب إلى زياد بن عبد الله واليه في العراق يستشيره، فبعث زياد إلى أخلص أصدقائه (عبيد بن كعب النميري) فقال: إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعاً، وإن الناس قد أودعت بهم خصلتان: إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها؛ وليس موضوع السر إلاّ أحد رجلين: رجل آخرة يرجو ثواباً، ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه، وقد عجبتها منك فأحمدت الذي قبلك، وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف، إن أمير المؤمنين كتب إلي يزعم أنه عزم على بيعة يزيد، وهو يتخوف نفرة الناس، ويرجوا مطابقتهم ويستشيرني، وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسله وتهاون، ومع ما قد أولع به من الصيد، فالقَ أمير المؤمنين مؤدياً عني، فأخبره عن فعلات يزيد، فقال له: "رويدك بالأمر فأتمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعجل فإن دركاً في تأخير خير من تعجيل عاقبته الفوت"، فقال: "أفلا غير هذا؟" قال: "ما هو؟" قال: "لا تفسد على معاوية رأيه، ولا تمقت إليه ابنه، وألقى أنا يزيداً سراً من معاوية؛ فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في بيعته، وأنك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس، ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد، وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة". فقدم على يزيد فذاكره ذلك وكتب زياد إلى معاوية يأمره بالتؤدة وألا يعجل فقبل معاوية، وكفَّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[٣].

---

(١) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ج٣، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، المصدر السابق، ص٢٤٨.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٨٤.

من هذه الحادثة، يتبيّن أن يزيد كان غير مؤهل لتولي أمر الأمة، ففيه هنات لا ترضي الناس، كما أن والده لم يكن مرغوباً فيه من الناس كافة؛ لهذا كان معاوية يريد أن يبايع لابنه في حياته لكي يوطد الأمر لابنه، حتى لا يواجه مصاعباً بعد موته، وليكون مقبولاً لديهم، ويتمكن معاوية من تصفية جيوب المعارضة باعتباره أقدر من ابنه على ذلك.

وفي تاريخ الطبري في أحداث سنة ٦٠هـ[(١)]: "أخذ معاوية على الوفد الذي وفدوا إليه مع عُبيد الله بن زياد البيعة لابنه يزيد، وأن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا يزيد ابنه، فقال: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطدت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلاّ أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك؛ وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه منعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إرباً إربا...".

إن هؤلاء النفر كان لهم رؤى خاصة، فمنهم من يرى قرابته من النبي تؤهله لخلافة المسلمين، كابن الزبير، ومنهم من كان أبوه خليفة سابق كابن أبي بكر، وابن عمر، ومنهم من كان يعد نفسه من آل بيت النبوة، والأولى بهذا الأمر من غيره، كما أن الاتفاق الذي تم بين معاوية والحسن بن علي، على أن يلي الخلافة بعده كان حجة قوية لردع معاوية عن التوصية لابنه، إلا أن كل هذه المعارضات تم إجهاضها في السنوات التالية.

لقد تم تصفية الحسين جسدياً في موقعة كربلاء الشهيرة التي راح ضحيتها سبعون شخصاً، وأغلبيتهم من أهل بيته عام (٦١هـ)[(٢)].

ثم أن ابن الزبير ثار في الحجاز بعد مقتل الحسين، وطالب الناس بمبايعته وتمت له البيعة من أهل مكّة والمدينة، وامتد نفوذه إلى البصرة والكوفة، ودانت له هذه المناطق وبعث فيها عماله.

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٢٦٠.

(٢) مصدر سابق، ج٣، ص٣٤٠.

وفي المدينة المنورة أخرج أهلها عامل يزيد[١]، وهو عثمان بن محمد بن أبـــي ســفيان، وأظهروا خلع يزيد وحاصروا بني أمية وأخرجوهم من المدينة، فاستنجدوا بيزيد بـــن معاويـــة، فأرسل إليهم جيشاً جراراً.

اصطدم جيش يزيد من أهل الشام مع أهل المدينة، وقتل منهم عـــدداً كبـيراً، واســتباح جيشه المدينة ثلاثة أيام، وحمل الناس على البيعة على أنهم (خول)[٢] ليزيد، ومن لم يقبل منـــهم البيعة على هذا النحو تمَّ قتله صبراً، ثم مضى الجيش إلى مكّة، حيث ابن الزبير العائذ بـــالحرم، والذي رفض البيعة ليزيد، وحاصر الجيش مكّة وقذف الكعبة بالمنجنيق وأحرقت أستارها، وذلـك قبل أن يأتي نعي يزيد بتسعة وعشرين يوماً (٣ ربيع الأول ٦٤هــ)[٣].

ثم وبعد حصار استمر أربعين يوماً، جاء خبر موت يزيد بن معاوية، فوقفــت الحــرب، واستقامت البيعة لابن الزبير في الحجاز، وعاد جيش الحصين بن نمير يجر أذياله إلى الشام[٤].

أوصى يزيد لابنه معاوية بولاية العهد، ولكنه لم يقم في الحكم إلا قليلاً وبعد وفاته نشـب النزاع على السلطة من جديد.

ويورد الطبري في تاريخه: "إن يزيد بن معاوية لما مات وعهد لابنه معاوية من بعــده، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية -فيما بلغني- أمر معاوية ابن يزيد بعد ولايته فنودي بالشـــام: الصلاة جامعة! فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ابتغيت لكم واحداً كعمر عندما فزع إليه أبو بكـــر فلم أجده، فابتغيت لكم سنة في الشورى مثل سنة عمر، فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم، فاختـــاروا له من أحببتم، ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس، وتغيب حتى مات، فقال بعض النـــاس: دس إليه فسقي سماً، وقال بعضهم: طعن".

لقد وضع معاوية بن أبي سفيان قاعدة عمد إليها في السياسة بإيلائه العهد لابنه حيث نقـل مؤسسة الخلافة إلى الملكية الوراثية[٥]، وهذا ما عمد إليه ابنه يزيد حيث عـــهد بالولايـــة لابنـــه معاوية، ولكن هذا الأخير شذَّ عن القاعدة ولم يوصِ لأحد[٦]، وبذلك وضع حـــداً لنهايـــة الحكـــم

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص٣٥٩؛ (خول)،(عبيد).

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٣٦١.

(٤) الحصين بن نمير السكوني: هو قائد الجيش الشامي تسلم الأمر بعد موت عقبة بن نافع، أنظر في ذلك: ابـن كثير، **البداية والنهاية**، مكتبة النصر، الرياض، ١٩٩٦، ج٨، ص٢٢٥.

(٥) يوسف العش، **الدولة الأموية الأحداث التي سبقتها ومهدت لها**، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٥، ص١٥٨.

(٦) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٣٧٩.

الأموي السفياني، الذي استمر نحواً من خمسةٍ وعشرين عاماً، ليبدأ حقبة جديدة من الحكم الأموي، ولكن هذه المرة في البيت المرواني.

فبعد اضطراب شديد ومواجهات دامية وخلافات قبلية، اصطلح في الشام على مروان بن الحكم، وخلّف مروان ابنه عبد الملك على العرش.

لم يحد مروان عن سياسة البيت السفياني في مسألة ولاية العهد؛ فلقد أحس أن القبائل العربية التي ساندته في الوصول إلى الحكم تنتظر دورها بعد وفاته، فقام بتولية ابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وهو ما زال على قيد الحياة، وتؤكد المصادر التاريخية أنه مات من عامه[١].

ويعد مروان بن الحكم مؤسس الأسرة المروانية، وهي الأسرة العربية الأموية الثانية التي حكمت المسلمين، وإذا كان معاوية مؤسس البيت السفياني قد تعامل مع قضية ولاية العهد بالتوريث والوصية لابنه، مستهلاً بذلك هذا النهج الجديد من السياسة، فقد صنع مروان تماماً كما صنع سالفه، وأسس نهجاً للمروانيين من بعده، بأن يوصوا بولاية العهد تحت ذريعة حقن دماء المسلمين؛ وإن كانت هذه الفكرة فيها الكثير من الدقة إذ أن احتمال اتفاق الناس على رجل عدل يرضونه بالإجماع لا يعد أمراً سهلاً.

لقد ضاق الناس بهذه السياسة وخاصة عمرو بن سعيد بن العاص (الأشدق) الذي قدم لمروان خدمات جليلة، على أن يتولى الخلافة بعده. وكذلك الأمر بالنسبة لزعماء القبائل الأخرى، فحسان بن مالك بن بجدل بايع لمروان، ليكون الأمر من بعده لخالد بن يزيد، لأن أمه من قبيلة بجدل، وهم أخواله، فضرب مروان حسان بعمرو، وتخلص من الطرفين، ولكن مروان وقع في شر عمله، إذ أنه حاول ذات مرة أن يصغر من شأن خالد أمام الحاضرين ويشتمه، فنقل خالداً لأمه ما حدث، فكادت له كيداً أودى بحياته[٢].

تسلّم عبد الملك زمام الأمور بعد موت مروان عام (٦٥هـ)، وكان ولي عهده قد كلف سابقاً، وهذه سياسة استجدها مروان بن الحكم، بأن يبايع بالخلافة لاثنين بالتتابع يكون أحدهم خليفة والآخر ولي العهد.

وفي مراحل حياته الأخيرة، أراد عبد الملك أن ينقل ولاية العهد لأبنائه ويستبعد أخاه تماماً كما فعل أبوه من قبله، حتى كأنها أصبحت عادة أن تخان وتخالف وصايا الخليفة الميت[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ الطبري، ج٣، مصدر سابق، ص ٤٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص٦٦٤.

لقد زين لعبد الملك حاشيته، بأن يستبعد أخاه عبد العزيز الذي كان والياً على مصر، وجرت بينهما مراسلات تبين موقف كل منهما، فعبد الملك يرى لأخيه أن يتنحى عن منصبه، وإن لم يكن بدّ من ذلك، فليجعلها من بعده لابن أخيه الوليد بن عبد الملك، وعبد العزيز يرى أنه لا يختلف مع أخيه في حب ولده، وأنه يرى في (أبو بكر) ابن عبد العزيز ما يراه عبد الملك بالوليد[١]. وفي نهاية الأمر يستعطف عبد العزيز أخاه، بأن لا يغتث عليه آخر عمره، وإنهما (أي عبد الملك وعبد العزيز) قد وصلا إلى سنٍ لم يصله أحد من بني أمية، إلا وقد اقترب أجله، ويرق عبد الملك لعبد العزيز. وما هي إلا مدة قصيرة يأتي الناعي بموت عبد العزيز[٢]، ويبعد شبح خلافٍ عائليٍ على السلطة، كان سيؤدي بالأمور إلى الكثير من السوء لو وقع؛ فضم عبد الملك عمل عبد العزيز بن مروان إلى ابنه عبد الله بن عبد الملك وولاه مصر[٣].

ويذكر الطبري أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وأوفد وفداً في ذلك عليهم عمران بن عصام العنزي، فقام عمران خطيباً فتكلم وتكلم الوفد وحثوا عبد الملك وسألوه ذلك، فقال عمران بن عصام[٤]:

أمير المؤمنين إليك نهدي ... على النأي التحية والسلاما

أجبني في بنيك يكن جوابي ... لهم عادية ولنا قواما

فلو أن الوليد أطاع فيه ... جعلت له الخلافة والذماما

شبيهك حول قبته قريش ... به يستمطر الناس الغماما

ومثلك في التقى لم يصبُ يوماً ... لدن خلع القلائد والتماما

فإن تؤثر أخاك بها فأنا ... وجدك لا نطيق له اتهاما

ولكنا نحاذر من بنيه ... بني العلات مأثرة سماما

ويخشى أن جعلت الملك فيهم ... سحاباً أن تعود لهم جهاماً

فلايك ما حلبت غدا لقوم ... وبعد غدٍ بنوك هم العياما

فأقسم لو تخطاني عصام ... بذلك ما عذرت به عصاما

ولو أني حبوت أخا بفضل ... أريد به المقالة والمقاما

لعقب في بني على بنيه ... كذلك أو لرمت له

فمن يك في أقاربه صدوع ... فصدع الملك أبطؤه ألتئاما

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٦٦٥.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٦٦٤-٦٦٥.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٦٦٤.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ص٦٦٤.

فهذا وفد يبعث به الحجاج إلى عبد الملك عليهم عمران بن عصام العنزي، يزين للخليفة التوصية بولاية العهد لابنه من بعده، وإن كان في ذلك تجاوز وظلم لأخيه وإقصاء له عن الحكم، وهم بذلك يداعبون عاطفة لا يمكن تجاوزها، متمثلة بحب الوالد لولده؛ فلو أن الخيار لي جعلته خليفة.

ولو أن الوليد أطاع فيه جعلت له الخلافة والذماما

فهو كما يراه عمران يشبه أباه في التفاف قريش حوله.

ثم يرفع من وتيرة الحديث؛ وإن تؤثر أخاك بالخلافة فإنا معك ولن نعصيك ولن نتهمه، ولكننا نخاف أن ينقل الرياسة والخلافة إلى أبنائه فيصبح أبناؤك إذ ذاك من عامة الناس، لا حول لهم ولا قوة، وقد يتناسى هؤلاء الخلفاء ما أسديت لهم من معروف، ويكون أبناؤك الضحية. ثم يحاول الشاعر تقريب الصورة إلى ذهن الخليفة أكثر، فيسرد مثلاً لو أني أنا حبوت أخاً بفضلٍ –أي فضل كان– ليحسن الثناء عليّ ويرفعني في المقام عنده، وكان هذا الفضل مما يورث لورثّه بنيه وفضلهم على بنيّ، وكل ذلك في الأمور العادية ولكن في أمر الملك فهو صدعٌ بطيء الالتئام ومحاباة الأبناء فيه أكثر إغراءً وبريقاً.

ولا نعرف سبباً يجعل الحجاج وأعوانه وحاشية الخليفة يتصرفون بهذه الطريقة إلا تقرّبهم لصاحب السيادة الحالية والحظوة لدى الخليفة القادم، وإن لهم عنده يد بتقليده المنصب وتخوفاً من القادم المجهول إذا تسلم الخلافة وأقصاهم عن أعمالهم.

ويقول محمد بن يزيد الأنصاري[١] (وهو كاتب عبد الملك): "غضب علي الوليد فلم يولني شيئا حين أشرت بسليمان من بعده". ويبدو أن هذا سبب مقنع يجعل الحاشية تسعى للتأثير على قرار الخليفة بتولية من يرونه مناسباً، لأنه لن ينساهم في حال تسلمه السلطة.

ثم إن الأمر أصبح تقليداً متوارثاً لدى الخلفاء الأمويين بالتوصية بولاية العهد، فهو أمر محتوم، فما كان من الذين يرغبون بالتدخل من الحاشية إلا أن يفعلوا ما يقدرون عليه.

وهذه الفكرة بحد ذاتها جعلت الشكوى والألم متزايدةً لدى قطاع واسع من الناس، وأن الحاكم سيكون مفروضاً على المسلمين وليس من صفة تميزه إلا كونه ابن الخليفة، حتى وإن كان غير مؤهل أخلاقياً أو دينياً، ولا مجال للاجتهاد في هذا الأمر.

تسلم الوليد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أبيه؛ فعندما احتضر أبوه لم يتمكن أن يستخلفه لأنّه صبي فعقد لأخيه هشام بن عبد الملك وجعله ولي العهد من بعده فتسلم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الأمر بعد موت هشام عام ١٢٥هـ[٢].

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٤، مصدر سابق، ص٢٢٧.

(٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص٢٠١.

وفي سنة ١٢٥هـ عقد الوليد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده، وجعلهما وليّي عهده، أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدماً على عثمان، وكتب بذلك إلى الأمصار[١].

وكانت صيغة الكتاب تتضمن غير البيعة أن أمير المؤمنين -وإن حدث بواحدٍ منهما حدث- فهو أملك في ولده ورعيته يقدم من أحب ويؤخر من أحب. فقال شاعر لم يذكر اسمه في ذلك[٢]:

نؤمل عثمان بعد الوليد	للعهد فينا ونرجو يزيدا
كما كان إذ ذاك في ملكه	يزيد يرجى لذاك الوليدا
على أنها شسعت شسعةً	فنحن نؤملها أن تعودا
فإن هي عادت فأرض القريـ	ـب عنها ليؤيس منها البعيدا...

ولكن مجون الوليد وسوء سيرته وانحرافه[٣] عن جادة الصواب، ألّبت عليه الناس. ولقد ازدادت هذه الصفات عمقاً بعد تسلمه الخلافة، وثقل على رعيته، وأضرت بأبناء هشام بن عبد الملك، فوثب عليه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فقتله[٤]. ولم يتمتع بالخلافة كثيراً، فقد مات من عامه[٥]، واختلف في أمر توصيته بولاية العهد لأخيه إبراهيم بن الوليد[٦]، وإبراهيم هذا لم يوصِ لأحد إذ إنه لم يمكث في الخلافة سوى سبعين ليلة[٧]، خرج عليه مروان بن محمد فهرب ثم عاد وبايع طائعاً.

أما مروان بن محمد والذي لقب (بالحمار) لأنه صبور في الحروب[٨]، ولم يكن يجفُّ له لبد في محاربة الخارجين عليه، فبقي خليفة إلى أن أطاح العباسيون به عام ١٣٢هـ، فلم[٩] يتمكن من تولية العهد لأحد.

لقد رفض كثير من الناس البيعة (لابني الوليد بالخلافة)، ومنهم سعيد بن بيهس بن صهيب الذي نهى الوليد عن ذلك لصغر سنهما فحبسه[١٠] حتى مات في الحبس، وأراد خالد بن عبد الله

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢٧.
(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٧.
(٣) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص٢٠١.
(٤) المصدر السابق، ص٢٠٣.
(٥) المصدر السابق، ص٢٠٤.
(٦) المصدر السابق، ص٢٠٤.
(٧) المصدر السابق، ص٢٠٤.
(٨) المصدر السابق، ص٢٠٥.
(٩) المصدر السابق، ص٢٠٥.
(١٠) محمد بن يزيد المبرد، **الكامل في الأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، مصر، القاهرة، د.ت، ص٤٧٩.

القسري على البيعة لابنه فأبى فغضب عليه، فقيل له لا تخالف أمير المؤمنين، فقال: لا أبايع من لا أصلي خلفه ولا أقبل شهادته، فسرتها اليمانية عليه وقضاعة، ووصلت أخباره إلى الوليد، ثم إن الوليد أراد الحج فخاف خالد أن يقتلوه في الطريق فنهاه عن الحج، فسأله الخليفة لم؟ فأخبره برأي الناس فيه فحبسه وأمر أن يطالب بأمواله للعرب[١]، ثمّ إنه عذبه وباع خالداً القسري بخمسين ألف ألف ليوسف بن عمر، بعد أن طلب الوليد منه أن يدفع هذا المبلغ فقال له خالد: "ما عهدت العرب تباع"[٢]، ثم حمله يوسف إلى الكوفة وعذبه حتى مات، وخالد هذا كان قد عمل في خدمة بني أمية (خمسة عشر عاماً) ذلل لهم كل الصعاب وحمل الناس على طاعتهم[٣]، لقد تناسى الأمويون كل خدمة قدمها لهم لأنه رفض البيعة بولاية العهد لأبناء الخليفة صغيري السن.

لقد أفرزت ولاية العهد شكوى من نوع جديد متمثلة في شكوى ولي العهد من الخليفة؛ إذ إن السياسة التي انتهجها الأمويون بالتوصية لاثنين بولاية العهد، جعلت الخليفة ينفس على من سيأتي بعده ويتمنى لو كانت لابنه لا غيره، وكانوا كثيراً ما يجهدون في الإخلال بوصية سابقيهم، وتحويل الأمر لغير من أوصوا له، وبذلك كانوا (يضيقون) الخناق عليهم ويعملون أقصى جهودهم للإضرار بولي العهد ليتنازل لابن الخليفة، وهذا ما حدث مع عبد الملك عندما راود أخيه عبد العزيز (للتنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد)، وفي ظل رفض عبد العزيز حاول إقناعه بأن تكون من بعده للوليد، ولكنه أبى وتمنع كما مر ذكره.

وبالطريقة نفسها حاول هشام بن عبد الملك إبعاد المنصب عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك إذ أوصى يزيد لابنه بعد هشام. ويعتبر الطبري أن هشاماً تولى الخلافة وهو مكرم للوليد ومعظم له ومقدر، حتى ظهر من الوليد مجون وشراب، واتخذ الوليد ندماء، فأراد هشام إبعاده عنهم فولاه الحج عام ١١٩[٤]. فحمل معه كلاباً في صناديق فسقط منها صندوق، وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه خمراً، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها، فخوّفه أصحابه وقالوا: لا نأمن الناس عليك وعلينا، فلم يحركها. وظهر للناس منه تهاون في الدين واستخفاف به، فبلغ ذلك هشاماً، فطمح في خلعه والبيعة لابنه مسلمة بن هشام وأراده على ذلك، فأبى فقال له اجعلها له من بعدك، فأبى فتنكر له هشام وأضرّ به، وأخذ يعمل سراً في البيعة لمسلمة، ولكنه لم يجد آذاناً صاغية. وتمادى الوليد وأفرط في طلب

---

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، أحداث سنة ١٢٦هـ، ص٤٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص٤٧٩.

(٣) المصدر السابق، ص٤٧٨.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢٢.

اللذات فقال له هشام: "أعلى الإسلام أنت أم لا... ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته غير منحاش ولا مستتر منه" فرد عليه الوليد شعراً(١):

يا أيها السائل عن ديننا	نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجة	بالسخن أحياناً وبالفاتر

وأبو شاكر كنية مسلمة؛ ولكن هشام بن عبد الملك اشتد على الوليد وضيق عليه كل باب، وأخذ أصدقاءه وألقاهم في السجن، فقال الوليد شاكياً من سوء تعامل عمه معه، ومتوعداً بانتقام شديد عندما تؤول إليه الخلافة، ومتعجباً من نكران المعروف الذي أسداه أبوه إليه(٢).

أنا النذير لمسدي نعمة أبداً	إلى المقاريف ما لم يخبر الدخلا
إن أنت أكرمتهم ألفيتهم بطراً	وإن أهنتهم ألفيتهم ذللا
أتشمخون ومنا رأس نعمتكم	ستعلمون إذا كانت لنا دولا
أنظر فإن كنت لم تقدر على مثل	له سوى الكلب فاضربه له مثلا
بينا يسمنه للصيد صاحبه	حتى إذا ما نوى من بعد ما هزلا
عدا عليه فلم تضرره عدوته	ولو أطاق له أكلاً لقد أكلا

وتبادل الطرفان الرسائل والعتاب، وفي كل ذلك يحاول هشام إبعاد ابن أخيه عن الخلافة ويسعى الوليد إلى التمسك بحقه والبيعة التي له في أعناق الناس، ويضيق ذرعاً بالوليد ويشكو عمه بألم شديد ويتوعد بالرد الشديد معاتباً عمه بمحاولة القطيعة وحشد الناس لكرهه، ويتوعدهم الوليد بالرد الشديد متهماً هشام بأنه المسؤول عما سيحدث لهم في قابل الأيام، لأنه هو الذي أرادهم على ذلك، فأفضل قولهم إذ ذاك (يا ليت)، والليت إذ ذاك لا تعني لهم شيئاً. ويتهم هشاماً بنكران الجميل وكفران النعمة وأن الله كان سيجزيه خيراً لو أنه قدر النعمة وصانها وحفظ لأهل الفضل فضلهم(٣):

رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي	فلو كنت ذا إرب لهدمت ما تبني
تثير على الباقين مجنى ضغينة	فويل لهم إن مت من شر ما تجني
كأني بهم والليت أفضل قولهم	ألا ليتنا والليت إذ ذاك لا يغني
كفرت يداً من منعم لو شكرتها	جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٤، ص٢٢٢.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٤.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٥.

فهذا نوع من الشكوى تطور وانبثق من خصوصية هذا العصر؛ وهو يعني أن الظلم كان متفشياً حتى طالت يداه نائب الخليفة، أو الرجل الثاني في الدولة الإسلامية الأموية، فما بال عامة الناس إذاً؟

لقد أدت سياسات الظلم والاضطهاد إلى تفكك في الأسرة الحاكمة، تبعه تصدع كبير في الدولة، الأمر الذي أذن بسقوطها وقيام دولة العباسيين على أنقاضها.

ومن خلال نظرة بسيطة على تاريخ الأمويين، فإننا نستخلص نتائج بالغة الأهمية والدقة؛ بأن عامة الخلفاء أوصوا بالخلافة بعدهم لأبنائهم أو لإخوانهم؛ وعينوهم أولياء للعهد في حياتهم. وكانت التوصية تبدأ دائماً للابن، وإن كان صغيراً تذهب للأخ.

إن الذين لم يعينوا أولياء للعهد ولم يوصوا بالخلافة بعدهم، كان لهم أسباب خاصة ولم يكونوا كثراً.

فمعاوية الثاني كما تشير المصادر التاريخية كان شاباً صالحاً وكان حريصاً ولم يخرج إلى الباب ولا فعل شيئاً من الأمور ولا صلى بالناس، وكانت مدة خلافته أربعين يوماً، أو كما أوردت بعض الروايات شهرين أو ثلاثة، ولما احتضر سأله الناس أن يستخلف بعده فقال: "ما أصبت من حلاوتها، فلمَ أتحمل مرارتها؟"[١].

كما أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لم يوص لأحد لأن أباه كان قد أوصى لأخيه سليمان من بعده.

وعمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الذي يشهد له كل الناس بالعدل والإحسان وحسن السيرة، لم يوصِ لأحد من بعده، لأن سليمان كان قد أوصى لأخيه يزيد بن عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز، وكذلك الأمر بالنسبة لهشام بن عبد الملك لم يوصِ لأحد لأن أخاه يزيداً كان قد أوصى لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهذا الأخير قتل من قِبل الخليفة الذي جاء بعده، فلم تنفذ وصيته لابنه الحكم وعثمان، وأما إبراهيم فإنه خُلِعَ من الخليفة الذي بعده، فلم يسبق له هو الآخر التوصية، وآخر الخلفاء (مروان بن محمد) قد أطيح به وبالخلافة الأموية كلها.

إن النفر الذين لم يوصوا بالخلافة بعدهم أقلية، وكانت لهم أسبابهم، وإذا استثني (عمر ابن عبد العزيز) فقط، فالآخرون جميعاً حاولوا وجهدوا بالتوصية أو قارفوها، ولم تنفذ لهم وصية.

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ص١٦٨.

لقد أصبحت هذه الظاهرة دالة على العصر الأموي وكانت من مساوئه، فالخليفة لا ينظر إلى المصلحة العليا للدولة وخير الأمة، بقدر النظر إلى أن هذا العرش سيبقى في هذه الأسرة إلى أن يشاء الله. وقد زادت هذه الظاهرة في ضيق الناس عامة، فأحياناً يكون الموصى له ماجناً أو منحرفاً مما يتنافى مع المجتمع الإسلامي الذي قصد طريقاً غير الطريق الجاهلي في شتى مناحي الحياة. وفي الجانب السياسي لم تكن درجة القرابة أولوية في الحكم، فأبو بكر الصديق عندما أوصى لعمر لم يوصِ لابنه أو أخيه، وإنما نظر إلى صالح الأمة أولاً وقبل كل شيء، ولكن العصر الأموي بقيادته الجديدة التي مالت إلى حكم الملوك أكثر منها إلى الحكم بشرع الله أرست قواعد جديدة مستمدة من روح القبلية الجاهلية وقدمت الأبناء للحكم، على أكتاف الأجلاء من الصحابة وأولي الفضل في الإسلام، مما أضاف إلى قلوب الناس المزيد من القهر والسخط على الأمويين وحكمهم.

إن انتقال السلطة العليا بين الأمويين لم تكن بهذه السهولة والشفافية المريحة، لقد جرّت في كثير من الأحيان الويلات وفتحت شلالات من الدماء وراح من جرائها الكثير من الأبرياء، فضلاً عن تأثيراتها المباشرة على هيبة الدولة الأموية. ولعلنا لا نبالغ في ذلك إذ أن أشهر القادة المسلمين والذي دوخ الصين وحلف بالله أن يطأ ترابها ويختم رقاب ملوكها ويجبي خراج بلادهم الأمر الذي دعا (كاشغر) ملك الصين أن يرضخ لمطالب قتيبة بن مسلم وبعث إليه تراباً من تراب الصين ليطأه وبعض أبنائهم ليختم أعناقهم.

كل ذلك ليخرج قتيبة من يمينه التي حلفها، وهذا التصرف لم يكن عبثاً، ولم يأت من فراغ بل لعظمة قتيبة في نفوسهم، وهيبته التي كانت ترتعد لها فرائصهم، وهذا ما عبر عنه أحد عجم أهل خراسان إذ قال: "يا معشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة". وقال فيه آخر "يا معشر العرب قتلتم قتيبة ويزيد بن سويد، وهما سيدا العرب، فقيل له فأيهما كان أعظم عندكم وأهيب؟ قال لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى جحر به في الأرض مكبلاً بالحديد ويزيد معنا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم"(١).

ولأن قتيبة صدع لأمر الوليد عندما طلب منه المبايعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز وذلك من باب إطاعة ولي الأمر. ومات الوليد قبل حدوث البيعة، فخاف قتيبة من ردة فعل سليمان بن عبد الملك، وهذا ما تم فعلاً، إذ همّ سليمان بعزله فقام قتيبة بخلع الخليفة، ولكن المسلمين في خراسان انقسموا على أنفسهم بين مؤيد لقتيبة ومعارض، انتهت بمقتل قتيبة وأفراد عائلته وجمع من القادة النشطاء، وتمرد العجم في تلك البلاد، واشتعلت الفتن والدسائس في

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٤، مصدر سابق، ص٤١.

أوساط المسلمين هناك، وثارت النعرات القبلية والاختلافات بين المسلمين، وتفكك المجتمع، وتربص كل فرد بالآخر، فكان الابتعاد عن الهدف الذي من أجله سكنوا هذه البلاد ووطنوها[١].

كل هذه الويلات والحروب "الأهلية" الطاحنة كانت بسبب رضوخ قتيبة بن مسلم لأوامر السلطة العليا التي كانت بيد الخليفة، أما غيره من الولاة والقادة الذين آزروا الوليد بإقصاء أخيه عن السلطة مثل الحجاج، فقد وافته منيته عام (٩٥هـ) أي قبل وفاة الوليد بعام واحد. ويبدو أن الأمر سيكون أكثر خطورة لو حدث العكس، بالقياس على المصير الذي آلت إليه الأمور في خراسان من جهة، ولخصوصية الوضع في العراق وأسلوب الحكم القاسي الذي انتهجه الحجاج فيهم من جهة أخرى.

وفي العام التاسع والتسعين استخلف عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم[٢] بعهد من سلمان بن عبد الملك بن مروان، وهو ما يعده المؤرخون الخليفة الخامس بعد الخلفاء الراشدين، لما كان يتمتع به من صفات قيادية ذات منطلق ديني، بعيدة عن أخلاقيات الملوك والسلاطين، التي انتهجها أسلافه من الأمويين، وهو من أحفاد عمر بن الخطاب، الخليفة العادل الملقب بالفاروق.

لقد عمل عمر بن عبد العزيز أثناء خلافته بما يمليه عليه الدين والتعاليم الإسلامية، وأشاع العدل والمساواة بين الناس وبالقدر الذي استطاعه، ولم تأخذه في الحق لومة لائم، إلا أنه أوقع في معمعة ولاية العهد رغم أنفه، ويبدو جلياً لمن يتتبع أحداث التاريخ لتلك الفترة أن عمر ورغم نزاهته وحياديته في التعامل، يبدو أنه (ذهب) ضحية سياسة البيت الداخلي (الأموي).

لقد فتح عمر بن عبد العزيز حواراً سياسياً هادئاً مع الخوارج الذين خرجوا في العراق زمن معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء الأمويين، فقد أرسل عمر إلى بسطام زعيم الخوارج[٣]، بكتاب يقول فيه إنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى مني، ودعاه فيه إلى المناظرة والحوار، وتشير المصادر التاريخية أن بسطاماً أرسل اثنين من اتباعه وكذلك عمر والتقوا وتناظر الطرفان وكان مما انتهوا إليه سؤالهم لم تقر بالخلافة من بعدك ليزيد، وكان اعتذاره أنه صير من قبل غيري وليس لي من الأمر شيء وهي وصية الخليفة السابق، ولكنهم أصابوا منه مقتلاً بأن سألوه أن لو وليت مالاً لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتكون أديت الأمانة، فطلب منهم عمر ثلاثة أيام يجيبهم بعدها، ثم أن بنو مروان خافوا أن يخرج الأمر من أيديهم ويخلع يزيد فدسوا إلى الخليفة من سقاه سماً فمات قبل انتهاء المدة[٤].

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٤، مصدر سابق، ص٤٣.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٥٩.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص٦٥.

(٤) المصدر السابق، ج٤، ص٦٧.

إن هذه الحادثة لتؤكد تأكيداً قوياً أن النزاع العائلي على ولاية العهد أودى بحياة الكثيرين من أبناء الأمة وهذه المرة كانت الضحية الخليفة نفسه الذي يجمع الدارسون على أنه أفضل من تولى أمر المسلمين بعد الخلفاء الراشدين في حسن السيرة والتدبير والتقوى والورع وإحقاق الحقوق وإنصاف المظلومين.

وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعد عمر وذلك عام ماية وواحد من الهجرة[١]. لقد كان الثمن الذي دفعه عمر كبيراً وكبيراً جداً.

ولنا أن نقول إنه كان ضحية لولاية العهد تلك التي كانت مدخلاً قوياً وسبباً مباشراً للتذمر والشكوى في أوساط الناس من الحكام الأمويين.

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٤، المصدر السابق، ص٧٢.

الباب الأول

الفصل الثالث

الشكوى من الولاة والسعاة وعمال الخراج

تناولنا في البنود السابقة الشكوى من ولاية العهد وظلم الخلفاء. وسوف نلقي تالياً الأضواء على الشكوى والتذمر من (المسؤولين) من الدرجة الثانية.

لقد كان الخليفة هو الآمر الناهي في الدولة الأموية وكان منفرداً في اتخاذ القرارات، وإن كان له مستشارون لكنه في نهاية الأمر يصدر القرار بنفسه، وعندما عالجنا الشكوى من ظلم الخلفاء وولاية العهد كانت هذه المظالم تصدر عن رأس الهرم (الحاكم).

أما في هذا الفصل فالبحث منصب على الدرجة قبل الأخيرة في الهرم وهم الولاة والأمراء وعمال الخراج ؛ فالولاة كان يعينهم الخليفة بشكل مباشر وهؤلاء بدورهم كانوا يعينون جامعي الضرائب وقادة الجند وحكام المناطق والأقاليم البعيدة التابعة لولاياتهم(١).

لقد كان الخلفاء من بني أمية برمتهم تقريبا في عاصمة الخلافة (دمشق) يعينون ولاة على أقاليم الدولة في الحجاز والعراق وخراسان ومصر وكافة المناطق التابعة للدولة وهؤلاء الأشخاص الذين يختارون على أسس من صنع الخليفة إما بمقدار ولائهم للأمويين أو للخليفة بشكل خاص، وإما بمقدار صلاح دينهم كما فعل عمر بن عبد العزيز(٢) أو بما يتمتعون به من صفات قيادية تمكن حكم الخليفة وتقويه(٣) فلقد كان هاجس الأمن يراود كل الخلفاء ومحاولة ضبط الدولة، وديمومة الولاء لدمشق، وتحطيم الخصوم وبتر المعارضة السياسية إن وجدت وهؤلاء الأشخاص بدورهم يصدرون أوامرهم بتعيين قادة الجيوش الفاتحة وعمال الخراج في ولاياتهم وقليلا ما يرشح للخليفة مواقف عصية على المعالجة فهم يعالجون المواقف والأزمات باعتبارها شأناً داخلياً وموقفاً عارضاً يجب عليهم معالجته دون الرجوع إلى القائد الأعلى ولهذا السبب كانت الشكوى من حكام الدرجة الثانية أكثر بكثير من ظلم الخليفة نفسه(٤).

---

(١) الخفاجي، **الحياة الأدبية**، مرجع سابق، ص٨.

(٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٣) كما هو الحال مع زياد في خلافة معاوية، والحجاج في عهد عبد الملك، ينظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص١٦٩-ص٥٤٧.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٦١٢.

فلقد أورد الطبري في تاريخه " أن المهلب بن أبي صفرة لما فرغ من الأزارقة قدم على الحجاج (سنة ٧٨هـ) فأجلسه معه ودعا بأصحاب البلاد من أصحاب المهلب فأخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن إلا صدقه الحجاج بذلك فحملهم الحجاج وأحسن عطاياهم وزاد في أعطياتهم ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال، وأحق بالأموال، هؤلاء حماة الثغور وغيظ الأعداء"[١].

وهذا إنما يدل على أن الحجاج يميز هؤلاء القوم من خلال معرفته بهم ودون الرجوع إلى القيادة العليا في الشام، ومن ثم فإن الحجاج نفسه اصطدم مع ابن الأشعث المعركة الشهيرة (دير الجماجم) وكان قد اختلف معه في بعض الأمور المتعلقة بسير المعارك في بلاد ما وراء النهر، أي أنه عاد من جديد ليعزل القائد الذي عينه وذلك عام (٨٢) هجري[٢].

إن المتتبع لتاريخ الأمويين ليرى في التظلمات والشكاوي الواردة من العامة تجاه الولاة والأمراء والقادة اضعافاً مضاعفة إذا ما قيست بتلك التي تأتي من الخلفاء أنفسهم لتماسهم المباشر مع الناس .

لقد ركن الكثيرون من الخلفاء إلى الدعة والراحة وحياة القصور والبذخ والترف واللهو[٣]. وتركوا لقادتهم وولاتهم حرية التصرف بأمور الولايات، ولم يتدخلوا إلا في بعض الحالات الأمر الذي أعطى الولاة السقف العالي من الحرية، وحتى في الأمور التي يرجع فيها إلى الخليفة كان الولاة يلقون بكل ثقلهم لتمرير ما يريدون متذرعين بأمن الدولة أولاً كما فعل زياد مع حجر بن عدي عندما ألقى بكل ظلاله على القضية ورفع لمعاوية عريضة فيها شهادات وجهاء الكوفة لإدانة حجر الذي راح ضحية لهذه المكيدة وكانت من السوابق في تاريخ الأمة[٤].

اشتد ظلم الولاة لما عهدوه من غض الطرف عن تصرفاتهم وذلك لحاجة الخلفاء إلى نوع محدد من الأمراء؛ فمعاوية بن ابي سفيان ترك لعمرِو بن العاص خراج مصر كلها نظير وقوفه إلى جانبه في نزاعه الدامي مع علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-، وكانت هذه المعادلة ترضي الطرفين: هذا يتمتع بخراج مصر كلها والتي كانت من أغنى الأمصار، وذاك يدعو له على المنبر، أي أن معاوية اشترى السيادة بالمال بصرف النظر عن طبيعة العلاقة بين عامة الناس وحاكمهم[٥].

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٦١٢.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، المصدر السابق، ص٦٢٩.

(٣) عبد الله التطاوي، **القصيدة الأموية – رؤية وتحليل**، مكتبة غريب، القاهرة . (د،ت، دط)، ص٨٠.

(٤) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٢٨٨.

(٥) الطبري، **تاريخ الطبري**، المصدر السابق، ج٣، ص٧٠.

وفي خراسان حيثُ زياد بن (أبيه) والياً من قبل علي بن أبي طالب رفـض فـي بـادئ الأمر الانقياد لمعاوية واستطاع معاوية شراء ذمته بأن ترك ما في يديه مـن أمـوال المسـلمين نظير مبايعته[١] وجدد له تنصيبه والياً لما عرف عنه من حيلةٍ ودهاءٍ ومكرٍ. فما يهم معاوية هو استتباب الأمن وتوسيع حدود الدولة ومبايعته خليفة للمسلمين، وفي مقابل ذلك يترك لزياد حرية التصرف بأموال المسلمين، وهذا بدوره يرفد خزينة دمشق بأي الصور التـي يراها مناسـبة[٢]. بغض النظر عن آلية العمل التي يقوم بها أو يقوم بها عمال الخراج الذين يعينهم.

لقد تعمد بعض الخلفاء أن يكون ولاتهم أشداء على الناس وجبابرة، وبمقابل ذلك يكـون الخليفة ليناً، ليصنعوا جواً متوازناً فلا يلينون جميعا فيخرج الناس على القـانون، ولا يشـتدون جميعاً فيحملون الناس على المهالك كما خاطب معاوية زيادا بـن ابيـه ؛ فيجـب عليـهم أن لا يسوسوا الرعية سياسة متماثلة[٣]. وهذا مما شجع الولاة على الشدة، الأمر الذي ينعكـس علـى الناس فيميلون إلى الشكوى والتظلم.

لقد نجحت سياسة معاوية هذه نجاحاً باهراً امتد إلى آخر العصر الأموي فنلحـظ العـدد الأوفر من الشعراء الذين شكوا العمال يتوجهون إلى الخليفة فيمدحونه مدحا يليق به وينفون عنـه تهمة مشاركة عامله بالظلم ويحاولون إيجاد الأعذار التي تخرج الخليفة من هذا الظلم، ثم ينفثـون ما يعتصرهم من ألم وشكوى ويسردون تظلماتهم من الولاة مطالبين الخليفة بإنصافهم وأخذ الحق لهم ممن اجترأ – دون علم الخليفة – على حقوق الناس عامة أو على حقـوق العشـيرة بشـكل خاص.

وهذا الراعي النميري يشكو السعاة، ولكن ليس قبل أن يمدح عبد الملك بن مروان فـي قصيدة طويلة تنوف عن تسعين بيتاً من الشعر:[٤]

مَا بَالُ دَفِّـــكَ بالفِرَاشِ مَذِيَلا	أقذىً بِعينك أَمْ أردْتَ رحيـلاَ
أولِيَّ أمرِ الله إنَّ عَشيرتـــــي	أمسَىَ سَوامُهُمُ عزِينَ فُلُـــولاَ
قَومٌ علَى الاسلامِ لما يمنعـــوا	ماعونَهمْ ويضيعوا التّهليـــلاَ
فادفـع مظالم عيلت ابناءنـــا	عنا وانقذ شلونا المأكـــولاَ

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٧.

(٢) شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٢٠٩.

(٣) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١١١.

(٤) ديوان الراعي النميري، تحقيق راينهرت فايبر، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٩٨٠، ص٢١٣ وما بعدها.

أنت الخليــفةُ حلمِهُ وفَعالُـــــهُ ... وإذا أردتَ لظالــمٍ تنكيــــــلاَ

إن السُعاةَ عَصوكَ حينَ بعثتهـــمْ ... وأتوْا دواعَي لو علِمتَ وغُــولاَ

إن الذين أمرتهم أن يعدلــــــوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيــــــلاَ

أخذوا العريف فقطّعُوا حَيزومُـــهَ ... بالأصبَّحيهِ قائما مَغلُـــولاَ

حتى إذَا لــَمْ يتركوا لعِظِامِــه ... لحماً ولا لفؤادهِ معقـــُــولاَ

نسي الأمانَةَ من مَخَافةِ لُقَّـــحٍ ... شمسٍ تَركْنَ بِضَبَعِـهِ مجــزولاَ

والقصيدة طويلة يبدي فيها الشاعر ذات نفسه وحنقه على السعاة الذيـــن عصـــوا أمـــير المؤمنين وبدلوا ما أمرهم به من عدل ومساواة بين الناس، ولكنهم انتهجوا سياسة جعلت الغنـــي فقيراً وزادت الفقير هزولاً(١).

كُتُبـــاً تَرَكْنَ غَنّينا ذَا خَلَّــــةٍ ... بَعْدَ الغِنَـــى وفَقيرَنَـــا مَهْـــزُولاَ(٢)

وهؤلاء الذين أمرتهم بالعدل لم يعدلوا فتيلا، ويستنكر الشاعر موقف السعاة منهم، وهم مسلمون حنفاء يسجدون لله بكرة وأصيلا ويدفعون الزكاة كما أمر بها الدين ولا يمنعـــون المـــاعون، أي أنهم مسلمون حقا ثم يتوجه إلى الخليفة كي يرفع الحيف عنهم ويطالبه بالتنكيل بهؤلاء العصبـــة التي تفردت بظلم العباد دون علمه وحتى في سنوات القحط والجدب التي تصيبهم وما يهمنا فـــي هذا المجال ذكر الشكوى التي عبر عنها الراعي بصرخة عالية مدوية وبوضوح تام فنراه وقـــد ملّ التلميح فيذكر "الشكوى" لفظاً يرفعها لأمير المؤمنين(٣).

أبْلِــغْ أميــرَ المؤمنيَن رسالــةً ... شكوى إليــكَ مُطَلَّــةً وعَوَيــــلاَ

وهذه الشكوى طال الزمان عليها وكثرت الهموم المتأتية بسببها يتمنى لو يلقـــى الأمـــير ويخبره ما حدث ويحدث فيتبع البيت السابق:

مِنْ نازحٍ كثُرتْ إليــكَ همومــهُ ... لَوْ يستطيعُ إلى اللقاءِ سبَيــــلاَ

طالَ التقلبُ والزمانُ ورابــَــــه ... كسلٌ ويكرَهُ أن يَكْونَ كسَــُـولاَ(٤)

---

(١) ديوان الراعي النميري، مصدر سابق، ص٢٣٧.

(٢) ديوان الراعي النميري، المصدر السابق، ص٢٨٠-٢٨٢.

(٣) ديوان الراعي النميري، المصدر السابق، ص٢٢٦.

(٤) ديوان الراعي النميري، المصدر السابق، ص٢٢٨.

ويطيل الشاعر وصفه لتلك الهموم التي راودته، وكأني به يريد أن ينقل بعمق الألم الذي ينتابه والشكوى التي تؤرقه وسائر بني قومه، والشكوى في هذه الأبيات تنصب على الجانب الديني والجانب المالي.

وتدل دلائل كثيرة على أن ولاة بني أمية ومن كانوا يقيمونهم على شؤون الخراج والزكاة كانوا يستغلون وظائفهم في جمع الثروات الكبيرة غير مراعين في ذلك للمسلمين إلاّ ولا ذمة[١]، ويضرب شوقي ضيف مثلاً لذلك المهلب بن أبي صفرة عندما صرفه الحجاج عن الأهواز فوجده قد احتجز لنفسه ألف ألف درهم. وكذلك ابنه يزيد في خراسان احتجز من بيت المال ستة آلاف ألف درهم[٢].

ويورد اليعقوبي في تاريخه ان راتب خالد القسري في ولايته على العراق كان عشرين ألف ألف وكان يستخلص من الناس ما يزيد على مائة ألف كل عام وقد استخرج منه ومن موظفيه عند عزلهِ سبعين ألفاً[٣].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ازداد سوءاً إلى درجة أن أصبحت الولاية على الإقليم مقترنة بالخيانة والسرقة الأمر الذي جعل الفساد يسود حتى بين السعاة الذين كانوا يجبون الزكاة في نجد داخل الجزيرة العربية[٤]. أي أن الفساد الذي كان في المدن كالكوفة والبصرة امتد حتى وصل البوادي.

ثم نرى الأمر يتنامى إلى أبعد من ذلك الحد وللدرجة التي يصبح فيها الوالي يجد في الولاية مغنماً وطريقاً للثراء وجمع الثروة. فهذا الشاعر أنس بن أبي أناس يقول لحارث بن بدر الغداني التميمي حين ولي إحدى كور الأهواز[٥]:

أحارِ بن بدرٍ قَدْ وليتَ إمارةً ... فكُنْ جرذاً فيها تخُونُ وتسَرِقُ

فالشاعر هنا يدرك قيمة أن تكون والياً ويوصي هذا الوالي بما تمليه عليه الظروف طالباً منه الاستفادة من هذا المنصب الجديد؛ دونما اهتمام بمصير الناس، فهو يسخر ويتهكم.

---

(١) شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٢٠٩.

(٢)المرجع السابق، ص٢٠٩.

(٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢، طبعة (اروبا)، ص٥٥-ص٣٨٨.

(٤) شوقي ضيف، **العصر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٥) حارثة بن بدر الغداني، في: نوري حمود القيسي، **شعراء أمويون**، ج٣، ص١١٦.

لقد ارتفعت وتيرة الظلم لدى السعاة والأمراء وجامعي الضرائب وشملت البلاد كافة ولـــم تقتصر على المناطق التي كانت خاضعة للأمويين بل تجاوزتها إلى أماكن نفوذ ابن الزبير فـــي العراق والحجاز فيما بين عامي (٦٤هـ –٧٣٠هـ).

فهذا عبد الله بن همام السلولي (ت ٧٢هـ) يشكو عمال ابن الزبـير فـي لاميـة طويلـة يستهلها[١]:

يا بنَ الزبير أميرَ المؤمنينَ ألـــمْ ... يبلغك ما فعلَ العمالُ بالعمـلِ ؟

باعوا التجارَ طعامَ الأرضِ واقتسَمُوا ... صُلبَ الخراجِ شحِاحاً قسمةَ النفلِ!

وقدمُوا لكَ شيخاً كاذباً خَــــذِلاً ... مَهْمَا يقُلْ لكَ شيخٌ كاذبٌ يقِــلِ

ويستفتح الشاعر قصيدته بسؤال يسترعي به انتباه الخليفة، وأن هناك أمراً جللاً لا بـد مـن معرفته والوقوف عليه. متمثلاً في خيانة العمال: ويذكرهـم واحـداً واحـداً ويذكـر خيانتـهم بالتفصيل.

فيقول لعبد الله بن الزبير:[٢]

اشَددْ يديكَ بـــزيدٍ إن ظفرتَ بـــهِ ... واشفِ الأراملَ من دحروجةِ الجعلِ

إنا مُنينا بضبٍ من بنــي خلـــفٍ ... يرَى الخيانةَ شرُبَ الماءِ بالعســلِ

خُذْ العُصيفير فانتفْ ريشَ ناهضــهِ ... حتـــى ينوءَ بشرٍ بعدَ مقتبـــلِ

ومـــا أمانـــةُ عتـــابٍ بسالمة ... لا غمــزَ فيها ولكن جمةَ السبـُــلِ

وقيس كندة[٣] قد طـالت إمارتـه ... بسرات الأرض بين السهل والجبـل

وخذ حجيراً فأتبعه محاسبـــة ... ومـــن عذرت فلا تعذر بني قفـل[٤]

---

(١) ديوان بن همام السلولي، ص٩٥، ج٥، تحقيق: وليد محمد السراقبي، مطبوعات مركز جمعة المـاجد، ط١، ١٩٩٦، ص٩٥.

(٢) **ديوان بن همام السلولي**، المصدر السابق، ص٩٧.

(٣) يريد قيس بن يزيد بن عمر بن شرحبيل الكندي.

(٤) يريد حجير بن حجار بن الحر، كان عليه الروابي، وبنو قفل من تميم بن ثعلب وكانوا على صدقات بكر.

مـــــا رابني مِنهُم إلا ارتفاعَهُم إلى الخبيصِ عن الصحناةِ[١] والبصلِ

ومــــا غلامٌ علَى أرضٍ مُسالمةٍ كَمَـــــــنْ غزا دسُتبي[٢] غير مجتعلِ

يُجبىَ إليه خــراجَ الأرضِ مُتكئاً مستهزئاً بغناءِ القينه الفضــــــــلِ !

والواليُّ الذي مهران أمـَّـــرَه فزال مهران مذمومـــــاً ولـــم يزلِ[٣] !

ودُونك ابنُ أبي عشٍ وصاحَبه،[٤] قيل السبيع فقد أجـــرى على مهل

لا تجعلنَّ (مالَ) بيت المالِ مأكلة لكل أزرق مــــــــن همدان مكتحل

ومنقذُ بن طريف من بنى أســد، أنبئت عامـــــــــلهم قد راح ذا ثقل[٥]

ومـــا أخَينس جعفى بمــــــانعه مـــــــنْ المتاعِ قيامُ الليلِ بالطَّول[٦]

ومـــا فرات، وإن قيل امرؤ ورعٌ، إن نالَ شيئاً بذاكَ الخائف الــوجلِ![٧]

والحارثّى سيرضى أن تقاسمــــه إذا تجاوزت عـــــن أعمالهِ[٨] الأولِ

وادعُ الأقارعَ فاقرعهم بـــداهيةٍ، واحمل خيانة مسعود عـــــلى جمل[٩]

كــانوا أتونا رجالاً، لا ركابَ لهــم فـــــأصبحوا اليومَ أهل الخيلِ والإبلِ !

لن يعتبوك ولمــــــا يَعلُ هامهَــمُ ضرب السياط وشد بعد في الحجــــل

إن السياط إذا عضت غـــواربهم أبدوا ذخائر من مال ومن حُلّــــــل!

---

(١) الصحناة طعام يتخذ من صغار السمك.

(٢) هي دستبي: كورة كبيرة في فارس بين الري وهمذان.

(٣) الوالبي: سعيد بن حرمله بن الكاهن الوالبي، ومهران: مولى لزياد وهو الذي جعل الوالبي في عداد العمل.

(٤) كان ابن أبي عش هذا والياً على الدينور، وصاحبه: عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمذاني.

(٥) يريد بعاملهم نعيم بن دجاجة وكان على أسفل الفرات.

(٦) هو زحر بن قيس وقيل هو محمد بن أبي سبرة وكان على جوخى.

(٧) يريد فرات بن زحر، قتل المختار يوم السبيع.

(٨) يريد السرى وقاص وكان على نهاوند.

(٩) مسعود هذا من أبي أسد.

إن هذا العدد الوافر من العمال الذين ذكرهم ليؤكد بما لا يدع مجالاً لشك أن ثمة سوء إدارة، وظلماً وحتى لو كان الشاعر متحاملاً على بعض من هؤلاء العمال فليس من الضروري أن يشمل تحامله الجميع.

إن هؤلاء العمال يتوزعون على مساحةٍ واسعة من أراض الدولة الإسلامية (الأموية) وهذا يدعم فكرة شمول ظاهرة الشكوى.

وتبدو ملاحظة جديرة بالاهتمام في هذا الصدد إذ إن الشكوى انصبت على الجانب المالي ويبدو أن الشاعر أصاب مقتلاً بفضح السياسات المالية إذ إن الخليفة (عبد الله بن الزبير) عرف عنه الشح والبخل، وقصة (أبو حرة) الذي هجره وانصرف عنه لبخله معروفة[1].

وقد شكا ابن همام من سوء تصرفات النعمان بن بشير الأنصاري وكان أميراً لمعاوية على الكوفة[2].

زيادتَنا نعمانُ لا تحبسنَّها ... خفِ الله فينا والكتابَ الذي تتلو
فإنك قد حُمِّلتَ منّا أمانةً ... بما عجزتْ عنه الصّلاخمة البُزْلُ
وأنتَ امرؤٌ حلوُ اللسانِ بليغه ... فما بالُه عند الزيادةِ لا يحلو
وقبلَكَ قَدْ كانوا علينا أئمةٌ ... يهمُّهم تقويمنا وهم عُصلُ
إذا نصَبوا للقولِ قالُوا فأحسنوا ... ولكنَّ حُسَنَ القولِ خالفه الفعلُ
أبى الله لي والدينُ والتُقى ... وبالشامِ إن حكَّمته الحكمُ العدلُ
أريدُ أميرَ المؤمنينَ فإنَه ... على كلِ أنحاءِ الرجالِ له الفضلُ
مهاجرةُ الأقوام يرجونَ فضله ... وهلاّك أعرابٍ أضلَّ بها المحلُ
أيثبت ما قلتم وتُلغى زيادتي ... دمي إن أسبغت هذه لكم بَسْلُ

ويشكو الشاعر من سوء إدارة النعمان ويطالبه بالحق الذي فرضه له الدين، ويذّكره بالأمانة وعظيم حملها، ويطالبه بالزيادة بصورة ذكية ساخرة مذكرا إياه بسابقيه من الولاة الذين كانوا يقيمون الناس على الحق وينسون أنفسهم. يكثرون الكلام ويقلون في الأفعال، ثم ينقل كلامه ويذكر أمير المؤمنين وأنه سوف يرحل إليه لينصفه ويختتم قصيدته بأن زيادته حق ويجب أن يأخذها.

والشكوى من العمال ماثلة في هذه الأبيات ومن سوء تصرفاتهم بأرزاق العباد. ونلحظ الشاعر يستخدم ضمير الجمع (زيادتنا)، (منا)، (علينا) ليبرز صورة للخليفة بأن الشكاية ليست

---

(١) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، مصدر سابق، ج٧، ١٦٩/١٦٨.

(٢) ديوان ابن همام السلولي، مرجع سابق، ص٨٩-ص٩٢.

شخصية ونفعية ولا تفهم على أساسٍ من خلاف فردي بل هي عامة تشمل جميع أفـراد الرعيـة وكذلك كرر استخدام الضمير الجمعي ليعبر عن ضمير الجماعة وإحساسها.

ثم إن الشاعر التفت ببراعة إلى الخليفة وأوصل إليه صورة بالغة الدقة فإن الله سـبحانه والدين الحنيف بما ينطوي عليه من تقى ثم الخليفة وهو ثالث بعد (الله والدين) كل أولئـك أبـوا على الشاعر إلا أن يبوح بالشكوى ويستجير بالخليفة كي ينصف الناس من الولاة.

ويشكو الراعي النميري من جديد في قصيدة مدحيّة لعبد الملك بن مروان[1].

أزْرَى بأمْوَالِنا قـومٌ أمرتهـمُ	بالعدلِ فيناً فَمَا أبقوْا وما قصدُوا
نُعْطي الزّكاةَ فما يرضىَ خطيبهم	حتىً تُضاعفَ أضعافاً لها عـذر
وأختلّ ذو المالِ والمثرونَ قد بقيتْ	على التلاتلِ من أموالِهم عُقَـدُ
فإن رفعتَ بهمْ رأساً نَعَشْتَـهُمُ	وإنْ لقُوا مثْلِها في قابلٍ فَسَدوُا

وجانب الشكوى جلي واضح من العمال الذين أمرهم الخليفة بحيازة المال ولـم يعدلـوا فزاد الفقير فقرا والغني قل ماله، ويطلب من الخليفة أن لا يقبل منهم هذا العمـل فإنـه إن لـم يضرب على أيديهم سيتمادون في الظلم والجور والاضطهاد ويفسدون.

وظلت سياسة الولاة والعمال محل شكوى ورفض حتى أيام الخليفة العادل عمر بن عبـد العزيز فقد قام إليه رجل وهو يخطب على المنبر – وكان قد بعث عمالا إلى خراسان والعـراق ينفذون سياسته العادلة،ويحطون الجزية عمن أسلم وألغى كل الضرائب الاستثنائية التـي كـانت مفروضة على الناس[2].

إن الذّين بعثتَ في أقطارِهـا	نبذُوا كِتابَكَ واستُحِلَّ المحْرَمُ
طُلُس الثياب على منابرِ أرضِنـا	كلٌّ يجـور وكلُهم يَتَظلـمُ

وشاعر آخر من أزد عُمان ينادي عمر بن عبد العزيز وهو (كعب بن الأشقر)[3]:

إن كُنتَ تحفظُ ماَ يليكَ فإنمَّـاَ	عُماَلُ أرضِكَ بالبلادِ ذئـابُ
لن يستجَيْبوا للذي تدعُو لَـهُ	حتىً تجلد بالسيوف رقـابُ

---

(١) ديوان الراعي النمري، مرجع سابق، ص٥٩-ص٦٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ٣٥٩/٣.

(٣) المصدر السابق، ٢٣١/١.

ومما اشتكى منه الشعراء سوء إدارة قادة الجند الفاتح، فهذا يزيد بن ربيعة بـــن مفــرّغ الحميري وكان مع عباد بن زياد بسجستان -أيام معاوية- فأصاب جند عباد ضيق في أعــــلاف دوابهم فقال ابن مفرغ[(١)]:

ألا ليــتَ اللِّحـــى عــادتْ حشيشـــــاً فنعلفُها خيـــولَ المسلمينا

وكان عباد بن زياد عظيم اللحية فطلبه عباد لما انتهى إليه هذا الشعر فهرب منه وهجاه بقصـــائد كثيرة منها[(٢)]:

إذا أودى معاويـــةُ بنُ حـــربِ فَبشِّرْ شِعْبُ قُعبكَ بانصـــداعِ

فأشهُد أنَّ أُمكَ لـــم تباشـــرْ أبا سُفيان واضعة القنـــــاعِ

ولكـــن كان أمراً فيه لبـــسٌ على وجلٍ شديدٍ وارتيــــاعِ

وقال أيضاً[(٣)]:

ألا أبلغ معاويةَ ابن حـــــربٍ مُغلغلةِ مـــنْ الرجلِ اليماني

أتغضب أن يقالَ أبوكَ عـــــفٌ وترضى أن يُقالَ أبـــوكَ زانِ

فـــــأشهُد أن رحِمك مـــن زيادِ كـــرحمِ الفيلِ من ولدِ الأتانِ

ثم إن عبد الله بن زياد تابعه حتى آخذه وعذّبه ثم بعث به إلى معاوية في الشـــام، فلمـــا دخل على معاوية بكى وقال: "ركب مني ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة"[(٤)].

وبعد حديث مع معاوية عفا عنه، ولكنه عذب على يد شرطة عبد الله بن زياد وكان ابـــن مفرغ قد حلف يميناً أن قائلها عبد الرحمن بن أم الحكم أخو مروان بن الحكم واتخذوا ابن مفـــرغ ذريعة[(٥)].

---

(١) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ٢٥٧.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق، ج٣، ٢٥٧.

(٥) المصدر السابق، ص٢٥٩.

إن سياسة عبيد الله ومن قبله والده زياد بن أبيه كانت على درجة عالية من الظلم والجور فكانوا يأخذون الناس بالظن وعلى غير جريرة يسومونهم سوء العذاب وكان هذا مما زاد من وتيرة الظلم والتذمر لدى الناس.

لقد امتد الظلم على يد الولاة وارتفع خاصة في المناطق الأكثر قلقاً ؛ فالعراق لم يهدأ طيلة حكم الأمويين بل كانت نهايتهم من هناك وهذا ما جعل الأمويين يفكرون جديا بأن حاكم العراق يجب أن يكون شديد البطش محباً لسفك الدماء كالحجاج وزياد.

وهذا الأمر مقبول منطقياً إذا علمنا أن العراق فيه الشيعة والخوارج من الناحية السياسية، ومن الناحية الاجتماعية فإن التركيبة السكانية كانت غير محبة للأمويين وهذا ما يؤيده عبد المجيد زراقط "إن عمر بن الخطاب أرسل أهل الردة إلى العراق، وإن في العراق بطون بكر وتميم وهم أعراب ليس لهم في سلطان الأمويين لواء وكانوا ينقمون عليهم استئثارهم بالمال وينظرون إلى ما نالته القبائل الأخرى بغضب ونقمه وثورة"(١).

هذا الأمر حدا بعبد الملك بن مروان أن يولي العراق أخاه بشراً، فكان شديدا على العصاة، إذا ظفر بالعاصي أقامه على كرسي وسمّر كفيه إلى الحائط بمسمار ونزع الكرسي من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت وقد قال أحد الشعراء في ذلك:

لولا مخافة بشر أو عقوبته ... أو أن يشد على كفي بمسمار

إذا لعطلت ثغري ثم زرتكم ... إن المحب إذا ما اشتاق زوار

لقد أدرك الأمويون مبكرا ضرورة ضبط العراق بأشد الولاة فكان نصيبه الأشداء الذين نكّلوا بالناس، فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي لم يوله عبد الملك العراق حتى نكل بالمدينة وحاصر مكّة وقتل ابن الزبير(٢) وخطبته في العراق مشهورة وكذلك كان قد فعل زياد من قبله(٣).

لقد كان سكان العراق عصيين على التطبيع ولم يتمكن منهم إلا من هو شديد المراس في الحرب قوي الشكيمة ولهذا كانت علاقتهم مع حكامهم ومع الولاة والأمراء، يشوبها التوتر دائماً حتى أن غالبية الشعر الذي يحمل هذا الطابع كان عراقياً: وانظر أشعاراً كثيرة في ديوان مالك ابن الريب فيها الشكوى خالصة من الحجاج بن يوسف والي الكوفة من قبل عبد الملك بن

---

(١) عبد المجيد حسين زراقط، **الشعر الأموي بين الفن والسلطان**، دار الباحث، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣، ص١١٣.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، مصدر سابق، ص٥٤٨.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص١٩٦.

مروان[١]؛ ومنها قوله:

فإن تنصفوا يا آلَ مروانَ نقتربْ ... إليكُم وإلاَّ فأذنُوا ببعادِ

فلولا بنَو مروان كان ابنُ يوسفِ ... كما كان عبداً من عبيدِ إياد

زمانٌ هَو العبُد المقرُّ بذلةٍ ... يراوحُ صبيانَ القُرى ويُغادي

فالشاعر (مالك بن الريب) يطالب الأمويين بالإنصاف فهو يرى من غير العدل أن يكون الحجاج والياً عليهم، ولولاهم لكان معلم صبيان وعبدا من عبيد اياد....ثم يستطرد الشاعر ذاكراً وسائل التخلص من هذا الوالي[٢]:

وفي الأرض عَنْ دارِ المذلّةِ مذهبٌ ... وكلُّ بلادٍ أُوْطِنِتْ كبِلاَدْي

وماذا يستطيع الحجاج أن يفعل بهم إن هربوا وتركوا هذه البلاد

فماذَا عَسَى الحجاجُ يبلغُ جُهدهُ ... إذا نحنُ جاوزَنَا حفيَر زيادِ

إن هذه الأبيات وأشباهها في العصر الأموي كثيرة جدا وهذا يقودنا إلى صنف آخر من الناس الذين كانوا يتذمرون من الولاة والأمراءِ وهم (اللصوص أو الصعاليك) وهذه الظاهرةُ قديمةٌ في المجتمع العربي منذ عصر الجاهلية، ولكنَّ الأمورَ في العصر الأموي ازدادت سوءاً فجنح عدد غير يسير من الناس عن واقعهم ورفضوا الممارسات المالية والسياسية التي انتهجها الحكام والولاة فظهرت هذه الطبقة المتمردة والخارجة على الدولة والخلافة والتي عرفت باللصوص[٣].

وأفرد عبد المعين الملوحي في كتابه (أشعار اللصوص وأخبارهم) مساحات واسعة شرح فيها أسباب ظاهرة اللصوصية ودوافعها. وأنه كان يدعوهم لهذا الفقر والعجز عن سد حاجة الأهل والأخوان، وهذه الظاهرة سوف نلقي عليها الضوء عند الحديث عن عوامل الشكوى الاجتماعية بشيء من التفصيل.

---

(١) **ديوان مالك بن الريب**، شعره، جمع: عبد المعين الملوحي في موسوعة: **أشعار اللصوص وأخبارهم**، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨، ص٢٦٤.

(٢) **ديوان مالك بن الريب**، المصدر السابق، ص٢٦٤.

(٣) نوري حمودي القيسي، **شعراء أمويون**، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥، ص٨٥.

وفي شعر الخوارج الكثير من الشكوى، ولكننا لم نعتمد كثيراً عليه لأن هذا الشعر تكفلت به أبحاث وكتب كثيرة[١].

وثمة شكوى طريفة على لسان شاعر (لم يذكر صاحب الكامل اسمه) من الحجاج وفيها يشكو منعه أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة فقال الشاعر[٢].

شَكونا إليهِ خرابَ السّوادِ فحرَّمَ جهلاً لحومَ البقرِ

وقد أمر الحجاج برد الموالي إلى قراهم ونقش على يد كل واحد منهم اسم قريته وأمره أن لا يخرج منها، وفرض الضرائب التي كانوا يدفعونها قبل إسلامهم[٣]. وقد أدت هذه السياسة إلى المزيد من الشكوى من سياسات الولاة وعمال الخراج آنذاك.

ومما يؤكد دور الحكام الأمويين في إذكاء نار الفتنة بين الناس والقبائل وأنهم هم المسؤلون عن صناعة فن النقائض ما أورده ابن سلام في طبقاته[٤] "إن سراقة قدم العراق على بشر بن مروان وكان بشرٌ من فتيان قريش سخاءً ونجدة وكان ممدحاً يغري بين الشعراء وهو أغرى بين جرير وسراقة، فحمل سراقة على جرير حتى هجاه".

ولسنا بصدد الحديث عن النقائض وخصائصها ونشأتها، والحديث فيها يطول[٥] ولكنها بما تحمله من معانٍ تؤيد أن هناك شكوى وتذمراً من ظلمٍ كان واقعا وهذا الظلم لم يكن إلا بسبب الحكام ومن أنابوهم من ولاة وعمالٍ على الأكوار والثغور والبوادي.

ومما يدلل على ضلوع الأمويين في الفتن بين القبائل العربية ما أورده صاحب العقد الفريد فقال: "وقع التهاجي بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أم الحكم فأرسل يزيد بن معاوية إلى كعب بن جعيل وقال له: اهج الأنصار، فقال: لا أهجو قوماً نصروا رسول الله ﷺ ولكن أدلّك على غلام نصراني، فدله على الأخطل فأرسل، إليه فهجا الأنصار وقال في

---

(١) انظر نايف معروف، **الخوارج في العصر الأموي**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٧. وانظر أيضاً، سهير القلماوي، **أدب الخوارج، العصر الأموي**، رسالة ماجستير، ١٩٤٥، وأيضاً، عمر أبو النصر، **الخوارج في الإسلام**، ط١، بيروت، ١٩٤٩.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٤، مصدر سابق، ١٢٩.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ٩٧.

(٤) محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣١هـ)، **طبقات الشّعراء**، دار النهضة، بيروت، ص١٠٦.

(٥) للمزيد ينظر زراقط، **الفن والسلطان**، ص٢٣ وما بعدها.

قصيدته:

ذهبت قريشٌ بالمكـــارمِ كُلهِـــا   واللـــؤم تحتَ عمائـــمِ الأنصـــارِ[١]

وهذا ما أيده محمد مصطفى هدارة في كتابه دراسات في الشعر العربي "حاول الأمويــون اصطناع القبائل إلى جانبهم ونجحوا في استمالة تغلب، وإشعال نار الحرب بينـــها وبيــن قيــس ليخففوا وطأة قيس في محاربة بني أمية".

وبنفس الموضوع والشكوى من العمال ولكن هذه المرة . يوجــه ابــن همــام الســلولي رسالته إلى معاوية وتنسب هذه القصيدة له ولغيره كما صنفها صاحب الديوان[٢].

ألا أبلْغ معاويـــةَ بنَ حـــــربٍ   فَقَد خَربَ السوادُ فلا ســـوادا

أرى العُمـــالَ آفتَنَـــا علَيْنَـــا   بعاجلِ نَفْعِهِمْ ظَلَمُوا العباد

فهل لـــكَ أن تُدارِكَ ما لدينـــا   وتدفعَ عن رعيتِكَ الفســـادَا

وتعــــزلْ تابعاً أبداً هــــواه   يُخربُ من بلادتـــه البـلادا

إذا ما قُلت : أقصَـرَ عن مـــداه   تمادَى في ضلالتـــه وزَادا

فهو يطالب الخليفة بعزل هؤلاء العمال الذين ظلموا العباد بعاجل نفعهم فهم يتبعون أهوائهم التـي ستخرّب البلاد وإنهم كلما رأينا فيهم الصلاح عادوا وتمادوا في ضلالتهم.

وتفوح رائحة الشكوى في كل أرجاء القصيدة من ظلم العمال وسوء إدارتهم؛ ولعـــل فـــي استخدام الاسم (ابن حرب) يوحي بأمنية في نفس الشاعر أن يشن على أولئك الفاســـدين حربـــاً شعواء أو عزلهم بأشد ما يمكن.

ويشكو مرة أخرى لابن الزبير من أخيه الذي كان والياً على الكوفة عندما تزوج بســكينة بنت الحسين وأســرف في مهرها إسرافاً زاد عن المألوف، وإن هذه الشكاية لو كانت لعمر بــن الخطاب (الفاروق) وأخبره بما يحدث لارتاع من هول ذلك:

أبلغْ أميرَ المؤمنيـــنَ رسالـــــةً   من ناصحٍ لك لا يريد خِداعــاً

بضعُ الفتـــاة بألفِ ألفِ كامـــلِ   وتبيتُ ساداتُ الجيوشِ جيـــاعاً

---

(١) انظر تفاصيل القصة ٣، **العقد الفريد**، ج٦، ص١٤٧، القصة، والبيت في ديوان الأخطل، ص٢٣٥.

(٢) ديوان ابن همام السلولي، مرجع سابق، ص١٠٩.

لـــو لأبي حفصٍ أقولُ مقالتـــــي وأبثُّ ما أبثَّكم لارتـــــــاعا

فهو يوجه هذه الرسالة بثوب الناصح الذي لا يتواطأ على خداع الأمير، ويستنكر ما قـــام به مصعب بن الزبير عندما تزوج من ابنة علي بن الحسين وأن الأولـــى بـــالأموال الطائلـــة أن تكون للجنود لا لمهر امرأة(١).

وتختلف صور الشكاية من العمال وتتعدد، وذلك بحسب المواقف فهذا الفـــرزدق يشـــكو خالداً بن عبد الله القسري، حين قتل مالك بن المنذر عمر بن يزيد الأسدي فأتت بنو تميم خـــالداً فشهدوا أن مالكاً قتله فلم يقبل شهادتهم(٢).

أتتكَ بنَـــو رجـــالٍ من تميـــمٍ فشهدوا فضيّعت حـــقَ الله في ظُلمِ مـــالكِ

ويستأنف الشاعر في نفس القصيدة الشكوى ولكن على النهر الذي شقّه خـــالد القســـري واســـماه (المبارك) وسخر الناس للعمل فيه(٣).

وأهلكتَ مالَ اللهِ في غيـــر حقِـــــــه على نهرِك المشؤوم غيرَ المُباركِ

وتضربُ أقواماً صحاحاً ظهورهـــــا وتترك حقّ الله في ظهر مالـــكِ

أإنفاق مال الله في غيـــــرِ كنهِـــهِ ومنعاً لحق المرملات الضوانـــكِ

فهو ينفق مال الله في غير حقه ويمنعه عن الأرامل اللواتي فقـــدن أزواجـــهن واللواتـــي أصبن بضيق.

وفي البيت الثاني إشارة إلى قصة مالك، وأن العامل (خـــالداً) يضـــرب الأبريـــاء ذوي الظهور الأصحاء ولا يثأر لدم مالك.

إن الشكوى من العمال والسعاة كثيرةٌ جداً ؛ فقد شملت أنحاء الدولة كافةً ولكـــن معظـــم الشعراء تخيروا لشكواهم قوالب مدحية ليتمكنوا من بث همومهم، وكما شـــملت الشـــكوى كـــل الأمصار وكانت متعددة الأنواع منها الشكوى من الظلم الاجتمـــاعي وســـوء الإدارة الداخليـــة، وسوء إدارة الجند الفاتح (الخارجية)، والانحرافات عن مقاصد الشريعة الإسلامية.

---

(١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٥، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م، ص٢٨٣.
(٢) الفرزدق، **ديوان الفرزدق**، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢، ص١١٠.
(٣) الفرزدق، **ديوان الفرزدق**، المرجع السابق، ص١١١.

الباب الثاني: الشكوى الاجتماعية

الفصل الأول

الشكوى من الفقر والحرمان

الفقر أحد الظواهر الاجتماعية بما لهذه اللفظة من معانٍ ومن حيث إنها انتشرت في كافة المجتمعات الإنسانية بدون حدود للزمان والمكان فهي كانت وما زالت وستبقى تجتاح المجتمعات في كل مكان من الأرض.

والفقر والحرمان كما يراهما (محمد الزير)[١] "لفظتان نطلقهما على حاجتين من حاجات الإنسان الضرورية" ونضيف إلى ذلك أنهما حاجتان لهما خاصة في تحقيق الشخصية الإنسانية وإقامة كيانها الاجتماعي لا من حيث البقاء فحسب ولكن أيضاً من حيث النمو والاستمرار على الصورة التي تتيح للإنسان الرضا والطمأنينة، أنهما حاجةُ المال وحاجة المكانة الاجتماعية.

والعصر الأموي كغيره من الحقب التاريخية التي مرت على الناس، ولكن ظاهرتا الفقر والحرمان كان لهما دور بارز وواضحٌ فقد عدَّ (محمد الزير) "المعاناة الاقتصادية والسياسية من أبرز هموم العصر الأموي"[٢].

لقد ظلَّ النزاع السياسي وما أفرزه من فِرق واتجاهات سياسية مثل المتمردين والخوارج ظاهرة بارزة في العهد الأموي وهذا النزاع يرجع في كثير من حالاته إلى بواعث اقتصادية كما يراه (شوقي ضيف)[٣] فلقد كان أصحاب الفرق السياسية يرون أن الدولة الأموية تسلطت على الأموال ونثرتها على أنصارها دون اعتبار لمصلحة الأمة . فطالب الزبيريون باسترجاع السيادة إلى الحجاز وطالب الشيعة بعودتها إلى العلويين أمّا الخوارج فطالبوا بإرجاعها للأمة لتختار من بينها حاكماً صالحاً، وحتى تتكافأ التوزيعة المالية والسياسية ولا تحصر في مؤيدي الأمويين فحسب.

لقد كان كل من الفقر والحرمان سبباً رئيساً في نشوء بعض الظواهر الاجتماعية السلبية، أو بصورةٍ أكثر دقّة بعث ظواهر كان الإسلام قد أخمد جذوتها مثل ظاهرة الصعلكة التي

---

(١) محمد الزير، **الحياة والموت في الشعر الأموي**، دار أُميَّة، الرياض، ط١، ١٩٨٩، ص٤٤.

(٢) محمد الزير، المرجع السابق، ص٤٤.

(٣) شوقي ضيف، **العصر الاسلامي**، مصر، دار المعارف، ط٦، ص٢٠٩.

اصطلح على تسميتها (اللصوصية) تمشياً مع معطيات العصر وكما أطلق عليهم البعض[١].

لقد كانت ظاهرة (الصعلكة) معلماً بارزاً في العصر الجاهلي[٢] وبمجيء الإسلام الذي أعطى الناس حقوقهم المالية والسياسية والاجتماعية؛ اختفت هذه الظاهرة[٣] ولكنها عادت لتظهر من جديد في العصر الأموي بسبب الظلم والقهر وتفشي الفقر والحرمان؛ إنّ هذه الظاهرة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بفترات الظلم والبغي وبخاصةٍ زمن عبد الملك بن مروان، وهو الذي يعدد من هؤلاء أسماءً كثيرةً منهم طهمان بن عمر الكلابي والسمهري العكلي وجحدر الحنفي وغيرهم الكثير[٤].

ويؤكد (حسين عطوان)[٥] أن الدولة الأموية كانت تنحاز إلى أعداء القبائل التي نشأ فيها الصعاليك ويسوق مثالاً لذلك "وصعلوك كمالك بن الريب كان يرى أن الحكّام الأمويين هم مصدر متاعبه وفقره مما جعله يتخذ من الغزو والإغارة سبيلاً إلى كسب القوت وتحقيق الذات"[٦] ولذات السبب يعزو عبد المعين الملوحي سبب تصعلك مالك بن الريب "في رأيي أن فقره وعجزه عن سد حاجته وحاجة إخوانه وأهله هما اللذان دفعاه إلى اللصوصية والفتك"[٧] ويسردُ الملوحي أسماء عدد غير قليل من اللصوص[٨] ويعزو أسباب هذه الظاهرة كما هو واضح من كلامه إلى الفقر والحرمان؛ إنّ نظرةً بسيطة في هذه الكتب التي تناولت هذه الثلة من اللصوص لتؤكد أن انتشار الظاهرة كان مقروناً بالفقر والاضطهاد والحرمان.

ولو نظرنا إلى البوادي في الحجاز ونجد، لوجدنا ظاهرةً تكونت في أعماق الصحراء انعكاساً لسياسات الظلم التي أفرزت القهر والحرمان والفقر؛ ففي أعماق هذه القفار ازدهرت وبشكلٍ كبير ظاهره الحبُ العذري وعبر عنها الشّعراء العذريون أيما تعبير، هذه الظاهرة التي أجمع معظم دارسيها على أن مرد نشأتها الأولى بيئات المناطق الفقيرة المحرومة[٩] والتي عانى أهلها صنوفَ الجوع والفقر وقسوة الحياة، ذلك أن انتقال السيادة من نجدٍ والحجاز إلى الشام أدى

---

(١) عبد المعين الملوحي، **أشعار اللصوص وأخبارهم**، ص١١ وما بعدها.

(٢) يوسف خليف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧، ص١٧.

(٣) محمد الزير، **الحياة والموت في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص٤٥.

(٤) محمد الزير، مرجع سابق، ص٤٦.

(٥) حسين عطوان، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي**، مرجع سابق، ص٤٤.

(٦) المرجع السابق، ص١٦٢.

(٧) الملوحي، **أشعار اللصوص وأخبارهم**، مرجع سابق، ص٢٥١.

(٨) المرجع السابق، ص٢٥٤.

(٩) زراقط، مرجع سابق، ص١٧٠.

إلى إهمال تلك البلاد وساكنيها وعدم الاهتمام بأحوال أهلها، في كافة الشؤون الاقتصادية والسياسية والاجتماعية[١]، ويرى طه حسين إن هؤلاء الأقوام انصرفوا إلى حياتهم الخاصة وانكبوا على أنفسهم في إحساسٍ باليأس والحزن[٢].

ولذلك نرى أن شعرهم جاءَ معبِّراً عن الحزن والأسى وخيبة الأمل والإحساس بالمرارة والفقر. والشكوى من الفقر وسوء الحال من أكثر الظواهر بروزاً في العهد الأموي وخاصةً تلك المرتبطة بالسلطات فمنع العطاء مثلاً لدى جرير يُعدُّ موتاً يسبق الموت الذي يقدره الله سبحانه، وفي قصيدته التي يشكو فيها من (سلمان بن سعد) صاحبِ ديوان العطاء في اليمامة إلى عمر بن عبد العزيز، ويصورّ الشاعرُ في قصيدته حاله وحال عياله؛ إذ لا طعام عندهم ولدى بيت سعد الخيرات كلها متوفرة، فيقول:[٣]

لقد كان ظنيّ بابن سعدٍ سعادةً	وما الظنُّ إلا مخطئاً ومصيبُ
تركت عيالي لا فواكه عندهم	وعند ابن سعد سُكرٌ وزبيب
تُحنَى العِظام الراجفات من البلى	وليس لداء الركبتين طبيب
كَأنّ النِّساءَ الآسراتِ حبينني	عريشاً فمشيي في الرجال دبيب
منعت عطائي يابن سعدٍ وانما	سبقت إليّ الموت وهو قريب
فإن ترجعوا ورقي إلي فإنه	متاع ليالٍ والحياةُ كذوبُ

وفي الأبيات مَوازنة بين حال أبناء الحاكم والمحكوم إن هذا الفقر الذي أطاح بهم كان بسبب سوء إدارة العمال ومنه تشكى الكثيرون من الشعراء.

والفقر حيوانٌ مفترسٌ لدى (رؤبة من العجاج)[٤]

إلى المصفَّى إن شكوت اللزْبا	عضَّ بأنيابٍ فابقى جُلْبا
من ثقل الدّيْنِ وشدَّ القِتْبا	إنّ المصفّي رهبةً ورغْبا
يُعطي ويَكفِي الرَّاهبين الرُّهْبا	حقّاً من الله عليه وَجْبَا

---

(١) محمد الزير، **الحياة والموت في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٢) طه حسين، **حديث الأربعاء**، ١/١٨٣، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤.

(٣) يوسف عبد، **ديوان جرير**، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٥٩.

(٤) رؤبة بن العجاج (ت:١٤٥هـ)، **ديوان رؤبة في مجموع أشعار العرب**، اعتنى بتصحيحه وليم ابن الورد البروسي، سلسلة ذخائر التراث العربيّ، منشورات دار الثقافة الجديدة، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٤.

ولرؤبة أيضاً شكايةٌ مرةً من الفقر والجوع[١]:

إليك أشكو عضّ دهرٍ مكسِـــرِ	أبقى خدوداً كالحريق المشـــررِ
أرسل فاستعدى بأمرٍ منكـــــرِ	بلوى وحشراً قبل يوم المحشرِ
طـــــرح مـــن تفريقه المبذر	مـــوتى وأحيا بشـــر مـــوقـــر
يشكون فقراً ليس بـــالتفقـــر	في خـــرقٍ بعـــد الدُقاق الأغبر
كَخرق الموتى عجافٌ القشبـــر	كم ساقطوا من ناشيء ومعصر
بعد رزايـــا كفـــراخ الـــحمـــر	أمسوا كمن زاول في التحيـــــر
ظلماء ليل بعد ليـــل مقمـــــر	ملقين لا يرمونَ أم الهنبـــــــر

من جر هزلى أسلمت لم تقبر !

وهذا الفقر قَرّب الحشر قبل وقته وساق إليهم الموت. والشكوى تعبِّر عما يعتصر قلـــب الشاعر من ألمٍ مرده إلى الفقر الحقيقي وليس التفقر. ولرؤبة أيضاً نص آخر[٢]

وعضّ بي إذ عضت المغارثُ	عِدلان من دَين ورِدءٌ ثالث
إلا تضع دَيْني فديني لابثٌ	وأنا مجهود النياط لاهثٌ

وفيه يشكو الفقر الذي أورثه وألزمه دَيناً أجهد نياطه وهو يلهث لا يقوى على سداد دينه ولكعـــب ابن معدن الأشقري[٣]

يا قوم غيرني وأذهب قوتي	دهر ألح بطارفي وتلادي
كبرٌ ووقع حوادثٍ نزلت بنا	والفقرُ بعد كرامة وجهادِ
تغتال كل مؤجل أيامـــــــه	وتصير بهجة ما ترى لنفادِ

(١) ديوان رؤبة، مصدر سابق، ص٢٠.

(٢) ديوان رؤبة، المصدر السابق، ص٢٠.

(٣) انظر ترجمته وأشعاره في نوري حمودي القيسي، **شعراء أمويون**، ج٢، ص٣٨٥.

فإحساس الشاعرُ هُنا بادٍ من سوء أفعال الدهر الذي آل به إلى الفقـــر، فـالدهرُ غـيره وأذهب قوته وبأسه لأنه ألح بماله الطريف والتليد، ويصور اجتياح المال بالنار التي أتـت علـى كل يابسٍ من الزرع.

ففعال الدهر والنار والتقدم بالسِّن كلها يعقبها الفقرُ بعد الكرامة والعيش السـوي، إن ذلـك مما يقرِّب الأجل ويأتي على بهجة الأيام.

وفي نص آخر من قصيدة طويلة يرى أن الفقر يوهي القوة(١) ويستغيث ويناشد العونَ.

فاجبر أخا لك أوهى الفقر قوته   لعله بعد وهي العظمُ ينجبرُ

وهذا عبد الله بن الزبير الأسدي(٢) يقول في قصيدة مدحية لعبد الله بن زياد والي الكوفة لمعاوية:

عشية قالت والركاب مناخة   بأكوارها مشدودة أين تذهـبُ

أفي كل مصر نازح لك حاجة   كذلك (ما) أمر الفتى المتشعـبُ

فوالله ما زالت تلبث ناقـتي   وتقسم حتى كادت الشمس تغربُ

دعيني ما للموت عني دافع   ولا للذي وليّ من العيش مطلـبُ

فالشاعر هنا كغيره من شعراء المدح الّذين لا يشكون الفقر بصريح العبـارة، لكنـهم ينتـهجون طريق المدائح(٣) ويلوّحونَ عن بعد للأمراء بسوء الحال والفقر فهو يعدُّ للسفرِ عدتهِ وسط تشعبِ في الأفكار وسوءِ في الحال يجيب تلك السائلة إنه قاصد عبد الله لعله يغيِّر من عيشه الذي سـاء والفقر الذي يقاسيه. وبنفس الطريقة نفسها يعالج الفرزدق الموضوع يتوجه إلى سليمان بن عبد الملك ويمدحه ثمّ يقول(٤):

لم يبقَ منهم غير ألسنةٍ   وأُعيظم وحـواصل حمـرِ

حتى غبطنا كل محتمـل   يمشي بـاعظمه إلى القبـرِ

وتمنت الاحياءُ أنهـم   تحت الترابِ وجيء بالحشرِ

---

(١) نور حمودي القيسي، **شعراء أمويون**، ج٢، مرجع سابق، ص٣٩٦.

(٢) **ديوان عبد الله ابن الزبير الأسدي** (ت٧٥)، جمع وتحقيق: يحيى الجبـوري، منشـورات وزارة الإعـلام العراقية، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤، سلسلة كتب التراث، ص٣٠.

(٣) عبد المجيد زراقط، **الفن والسلطان في العصر الأموي**، مرجع سابق، ص٣٨١.

(٤) محمد طراد، **ديوان الفرزدق**، دار الكتاب العربيّ، ج١، ص٢٦٢.

فهذه الصورة البارعة للحال المتردي الذي يقاسيه الناس من الفقر والجوع والحرمان حتى انهم ليتمنون يوم الحشر يأتيهم؛ فالمفاضلة بين الموت والحياة الفقيرة اليائسة ترجح الموت كناية عن سوء الحال ويقول (عبد المجيد زراقط)[١] في هذا المجال: "إن الفرزدق لم يجد فرصة لعرض الواقع الذي كان يعيشه إلا عندما أراد مدح سليمان، واستخدام هذا العرض ينعى به سلوك الحجاج ويصور به الخليفة منقذاً" ولكن الشاعر في النهاية سواء أكان مادحاً أم غير مادح فهو يصف ما آلت إليه الأمور من سوء وما نابَ الناس من فقر وسوء حال نتيجةً لممارسة الحاكم.

وهذا الأسلوب لم يكن عاماً على وجه الإطلاق[٢] فلقد كان من الشعراء من اتخذ أسلوباً آخر في التعامل متمثلاً بالمواجهة الشعرية كما فعل (الصعاليك) أو اللصوص في العصر الأموي والذين أطلق عليهم زراقط (المتمردون) فهذا (أبو النشناش النهشلي)[٣] يدفعه الفقر إلى (اللصوصية) كما مرّ معنا سابقاً في دوافع الصعاليك وكما يؤكده (حسين عطوان)[٤] نسمعه يقول:

وسائلةٍ أين ارتحالي وسائلٍ ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟

مذاهبه الفجاج عريضةً ... إذا ضنّ عنه بالنوال أقاربه

إذا المرء لم يُسرح سواماً ولم يرح ... سَواماً ولم تعطف عليه أقاربه

فكالموت خيرٌ للفتى من قعوده ... عديماً ومن مولى تدب عقاربه

فلم أر مثل الهم ضاجعه الفتى ... ولا كسواد الليل أخفقَ طالبه [٥]

وهذه القصيدة تصوّر الشاعر (الصعلوك) أصدقَ تصوير وسبب الخروج ونوع الحياة التي يرغب ويصفُ فيها الصحراء، فهو كغيره من الصعاليك يرفض الفقر ويُفضّل الموتَ عليه؛ فهو يعالج هذه الظاهرة بما يراه الأنسب منطلقاً من رفضه للظلم والفقر والحرمان مُعلناً المواجهة ولو كان الثمن حياته. ومن الجديُر ذكره أن لهذه العُصبة شكوى مرة من الوضع السياسي سبق ذكر بعض جوانبها في الشكوى السياسية من هذه الدراسة وإنما هذا الفصل للعوامل الاجتماعية.

---

(١) زراقط، **الفن والسلطان في العصر الأموي**، مرجع سابق، ص٣٨١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧٥.

(٣) عبد الملك بن قريب، **الأصمعيات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط٣، د.ت، رقم الأصمعية ٣٢، ص ١١٨.

(٤) حسين عطوان، **الشّعراء الصعاليك**، مرجع سابق، ص٣٢ وما بعدها.

(٥) الأصمعيات، مرجع سابق، ص١١٨.

وترى في هاشميات الكميتُ بن زيد الأسدي والذي عرف بانقطاعه لبيت الرسول الكريم ﷺ أصداء لظاهرة الفقر والجوع ويشكو الأمويين بمرارة[١]

فكيف ومَنْ أنَّى وإذا نحن حلفةٌ فريقان شتى تسمنون ونهزلُ

أي أن الناس فريقان: بنو أمية ومن حالفهم في الرفاهية والدعة ونحن في الشقاء والجوع.

وفي مكان آخر في نفس القصيدة يشكو الأمويين بأنهم لا يدعون أحداً يمشي بين نخله ولا يمسه حتى يؤدي خراجه فإن هوَ مسَّه قبل ذلك قُتل[٢]

تحلُّ دماءَ المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلةِ المتهَدِّلُ

ونحن لسنا بصدد دراسة الهاشميات في هذا المضمار ولكنا نقفُ عند إشاراتٍ تؤيد ما ذهبنا إليه من كون ظاهرة الشكاية من الفقر والحرمان من الحكام كانت ظاهرةً شائعة في جلِّ القصائد الهاشمية والتي كان الغرض الأساسي منها إبداء الدعم والتأييد لآل البيت من الهاشميين وإظهار التشيع لهم وحقهم بالخلافة وسياسة أمور الناس دون غيرهم وذكر مآثرهم وكيل المدائح لهم[٣]، والممعن النظر في هذه القصائد يجدُ أصداء واضحة وشكاياتٍ واسعة من الفقر والحرمان الذي قاساه الناس على أيدي الحكام من بني أُمية – هذا في الجانب (الاقتصادي والاجتماعي) أما الشكاية من السياسة الأموية فكانت إحدى ركائز القصائد الهاشمية[٤] والتذمر من سوء الحكام لم يكن سبب شعور الكميت المتشيع للهاشميّن المنقطع لمدحهم، ولكن كانت الانحرافات عن المنهج الإسلامي للحكم بارزة[٥].

وعَطلت الأحكام حتى كأننا على ملةٍ غير التي ننتحّلُ

والملة هي الدين، والإشارة واضحة للآية الكريمة ﴿مِلةُ أبيكم إبراهيم﴾[٦] فكأنما حكم

---

(١) شرح ديوان الهاشميات، تحقيق: محمد نبيل الطريفي، ص٥٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص٥٩٩.

(٣) انظر في شرح الهاشميات، تحقيق: الدكتور الطريفي، ص٤٨٨ البيت ٧ وص ٥٩١ البيت ١٧، وص٥٤٣ البيت ٨١ /٨٢ /٨٣/ و ص٥٤٨ البيت ٩ (نعالج مرمل من العيش بالي) و ص٥٩٠ البيت ١١ (باقي عيشنا هدم الخباء المرعبلُ) و ص٥٩٣ البيت ١٩ (تسمنون ونهزل) وص٥٩٨ البيت ٣٤ والبيت ٤٠ (يحرم طلع النخل) والبيت ٤١ /٤٢ (ليس لنا في الفيء حظ).

(٤) الشكوى من الظلم السياسي باب من هذه الدراسة ولكنا نذكرها لاتصالها بالهاشميات.

(٥) شرح ديوان الهاشميات، مرجع سابق، ص٥٨٨.

(٦) سورة الحج، الآية ٧٨.

الأمويّن أخَرجَ عن الملة إلى ملةٍ أخرى بتبديل الأحكام والسنن[١]، وهذه شكوى حادة جداً يستنفر بها الشاعر كل مسلم، لقد كانت الشكاية السياسية تحتاجُ إلى موقف علمي منطقي لا لدعم الهاشميين فحسب بل ومن أجل دحض حق الآخرين في السيادة إذ لو كانت الخلافة كما يدعي بني أمية ليست من تراث النبي ﷺ[٢] لكان للقبائل العربية الأخرى الحقّ فيها مثل (بكيل وارحب والسكون)[٣].

وتكمن ملحوظةٌ هنا جديرة بالاهتمام إذ إن من أسباب ازدهار (الهاشميات) ظلم الحاكم، فالشاعر المحروم المقيد والمضطهد سياسياً واقتصادياً واجتماعيا يتجه بأشعاره لمدح الهاشميين ليس فقط لكونهم أصحاب حق رباني بل إن الأملَ يحدوه بالعدل والإنصاف[٤] إذ إن جلَ هذه القصائد كانت تمتدح آل البيت بعدلهم وإنصافهم وكرمهم: (فلولا التشهدُ كانت لاؤه نعم)[٥] وهذا ما ذهب إليه (عبد الحميد جيدة) أن الفرزدق لم يكن صريحاً بهجائه لبني أمية، وكان يميل إلى مذهب الشيعة.

لم يقف الشعراء في العصر الأموي عند ذكر ظاهرة الفقر وقوف المتفرج بل إن بعضهم مشى إلى الخليفة في خطوة علاجية في مواجهة الواقع[٦]، فهذا جرير وهو شاعر البلاط الأموي يقول[٧]:

ألا هل للخليفة في نزارٍ	فقد أمسوا وأكثرهم كلولُ
وتدعوكَ الأراملُ واليتامى	ومن أمسىَ وليسَ بهِ حويلُ
وتشكو الماشياتُ إليك جهداً	ولا صعبٌ لهن ولا ذلولُ
وأكثر زادهن وهن سفعٌ	حطام الجلد والعصبُ المليلُ

والشكوى من سوء الحال والفقر والحرمان واضحةٌ في هذه الأبيات وفيها توجّه إلى رأس الهرم الحاكم من أكثر القطاعات فقراً ويأساً: الأرامل واليتامى.

---

(١) الهاشميات، مصدر سابق، ص٥٨٨.

(٢) الهاشميات، المصدر السابق، ص٥٢١.

(٣) الهاشميات، المصدر السابق، ص ٥٢٧ – ٥٢٨.

(٤) الهاشميات، مصدر سابق، ص٥٢٦.

(٥) ديوان الفرزدق، مصدر سابق، ص٣٢.

(٦) فاطمة محمد حميد السويدي، **الاغتراب في الشعر الأموي**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧، ص٥.

(٧) يوسف عيد، **ديوان جرير**، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص٤٣١.

ولجرير أيضاً قصيدة أخرى توجه بها إلى عبد الملك بن مروان شاكياً حال عياله وأمهم من قلة الشبع وسوء الحال[١]، يقول:

أشكو اليكَ فأشكني ذُريّةَ	لايشبعونَ وأمُهم لاتشبعُ
كثروا عليّ فما يموت كبيرهم	حتى الحسابِ ولا الصغيرُ المرضعُ
وإذا نظرت يريبني من أمهم	عينٌ مهججةٌ وخدٌ أسفعُ

(١) يوسف عيد، ديوان جرير، المرجع السابق، ص٣٥٤.

الباب الثاني

الفصل الثاني

الشكوى من السجن

الإنسان شخصية قبل كل شيء، ولا شخصية بلا حرية ومن لا حرية له ليس له شخصية[(١)] والسجن هو مقبرة للإنسان، وقد تكون أشد من ذلك لأنه يشعر بنقيضين في آنٍ معاً فهو حيٌّ ولكنه مسلوب الحركة والإرادة والحرية فهو أقرب للميت منه للحي، لذلك تعدُّ عقوبة السجن تقييد الحرية قبل الموت. أو كما وصفها الدكتور محمد الزير "الانسان المسجون يشعر وكأنه موجود مع وقف التنفيذ، أو هو موجود في الحياة على هامشها"[(٢)].

والسجن كعقوبة موغلة في التاريخ يودعُ فيه كل من خالف المنظومة الاجتماعية، وقد يودع فيه مظلومون، وقصة النبي يوسف عليه السلام مع عزيز مصر أبرز الأمثلة على ذلك ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِين﴾[(٣)].

والعصر الأموي أكثر العصور قلقاً وانعدام استقرار، إذ إن الأمويين عُـدوا مغتصبين للحكم، وكانوا يصارعون قوى مختلفة محيطة بهم من كل جانب، فالشيعةُ والخوارج وأصحابُ المذاهب، وحتى داخل البيت الأموي كان الصراع على أشُده فكانت سياسة (الأسر والسجن) رائجة آنذاك.

لقد نَفَر الناسُ من ظاهرةِ السجن، وعُبرَ عنها على ألسنة الشعراء طيلة أيام بني أُمية، فشكا الشاعرُ مما ينتابه من مشاعر وما يعتريه من تغيرات في الجسم واللون. فهذا يزيد بن مفرغ يتحدث عن عذاباته في السجن وما طرأ عليه من شحوبٍ وتغير في اللون[(٤)].

أصاب عذابي اللونَ فاللونُ شاحبٌ ... كما الرأس من هولِ المنيةِ أشيبُ

قُرنتُ بخنزيرٍ وهرٍ وكلبةٍ ... زماناً وشانَ الجِلد ضرب مُشذَّبُ

---

(١) محمد الزير، **الحياة والموت في الشعر الأموي**، مرجع سابق، ص٣٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩١.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣٣.

(٤) **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري** (ت٦٩هـ)، جمعه وحققه: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة البيان للطباعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥، ص٥٥.

وجرعتها صهباء مـن غير لـــذةٍ تُصعد في الجثمان ثـــم تــصوبُ

وأطعمتُ مـــــا إن لا يــحل لآكــلٍ وصليت شرقا وبيت مكّة مـــغربُ

فــلو أن لحمي إذ وهى لعبــت بــهِ كـــرامُ مــلوكِ أو أســود وأذؤبُ

لهُّونَ مــن وجدي وســلى مصيبتي ولكنمـــا أودَى بــلحمِــي أكلـــبُ

وكما هو ظاهر من هذه القصيدة فاللونُ شاحبٌ واشتعل الرأسُ شيباً لطول المكوث فـــي السجن وعمق المأساة التي يعاني منها الشاعر وهو يئنُ في الأغلال، وثقلها والوحدة وما تجـــره عليه من تعميق إحساسه بما يكابده ولا نصير له، حتى إن هذا الســـجنَ أخــلَّ بأركـــان العبــادة فيصلي على غير معرفةٍ بالقبلة.

ثم يخلص الشاعر إلى قمة مأساتهِ في السجن؛ إذ يتمنى لو أن أولئك القائمين على ســجنه أناسٍ ذوو حظوة واحترام ولكنهم ليسوا إلا أكلبٌ ترتعُ بلحمه ودمه.

وانظر إليه في قصيدة أخرى والشكوى والألم يعتصران قلبـــه مـــن الســـجن وحرّاســه القاعدين بالباب الموكلين بقيوده:

أيُّ بـــلــوى معيشة قـــد بلونــا فنعِمنَا ومـــــا وجدنا خـــلودا

ودهــــورٌ لقينـــا مــوجعـــات وزمـــــانُ يكــسرُ الجلمــــــودا

فصبرنْـــا عـــلى مــواطنِ ضيــقٍ وخطـــوبِ تصيرُ البيضَ ســـوداً

ضــــلّ فيها النصيحُ يرســـلُ ســراً لا تهالنَّ إن سمعـــــتَ الـــوعيــدا

أفــإنسٌ؟ مـــا هكذا صبـرُ إنــسٍ أم مِــنْ الجنِ أم خُـــلِقتَ حــــديدا؟

يــومَ أعطى مخافة المــــوتِ ضيماً والمنايـــــا يـــرصُدَنني أن أحيــدا

طــالعـــاتِ أخذنَ كُـــلَّ سبيـــلِ لا شَقِيًّـــــــاً ولا يـــدعنَ سعيــداً

فيعد الشاعر السجن أكبر بلوى يُمتحنُ بها الإنسان، والحياة قصيرةٌ لا خلود فيها إلا أنــه لقي منها دهوراً موجعاتٍ وتصبره على تلك الخطوب التي ضيقت عليه.

وما كان سجن الشاعر إلا لاستماعه قول النصيح الذي دعـــاه إلـــى إن لا يخـــاف مـــن الوعيد، ويستغربُ الشاعر من شدة صبره على البلوى حتى أن الجنَّ لا يصبر كصبره وأن هـــذه الرزايا لتذيب الحديد.

ثمّ يمضي الشاعر من شدة الشكوى هارباً إلى معاهد الذكريات لما فيها من تسرية للخاطر وهروبٍ من واقع مرير لا يُطاق. ويبدو أن هذه الفكرة تلازم السجين دائماً، فيعزي نفسه بأحاديث الذكريات. ولنتأمل موقفاً آخر من الألم والشكوى ليزيد بن المفرغ وهو أسير في السجن محروماً من حبيبته، وأمواله وجياده، وسلاحه[1]

دار سلمى بالخبت ذي الأطلالِ … كيفَ نومُ الأسيرِ في الأغلالِ

أين مني السلامُ من بعد نأيٍ … فأرجِعي لي تحيّتي وسؤالي

اين مني نجائِبي وجيادي … وغزالي سَقَى الإلهُ غزالي

أينَ لا أينَ جُنتي وسِلاَحي … ومطايا سيّرتهُا لارتحالي

هدَمَ الدهرُ عرشَنا وتداعى … فبُلينا إذ كل شيء بالي

إذ دعانا لزوالته فأجبنا … كلُّ دُنيا ونعمةٍ لزوالِ

أم قضينا حاجاتنا فإلى المو … تِ مصيرُ الملوكِ والأقيالِ

يخاطب الشاعر دار محبوبته، متسائلاً ومستنكراً نوم الأسير بالأغلال. ويمضي الشاعر إلى ذكر الجياد والنجائب هروباً من واقعه. ويبدو أن الشكوى والألم وصلتا بالشاعر إلى أن يبحث عن سلاحه ومطيته مُعزياً نفسه باقتراب الخروج وأن إمكانية تحقيقها واردة لو أنه يمتلك هذه الأدوات. وتصل حدود الشكوى من السجن إلى أبعد حد بأن الموت هو النهاية الطبيعية لكل المخلوقات، ويعزي الشاعر نفسه بأن الموت سينال الجميع، من عبيدٍ وملوك. وتبدو هنا إشارة واضحة من الشاعر إذ إنه يُذِّكر ساجنيه بالموت، لعل من يسمعه يجيبه ويخفف من ألمه.

ويبدو في البيت الأخير إحساس الشاعر باليأس والإحباط إذ ساوى بين السجن والموت وأن هذه المدة الزمانية التي يقضيها بعد أن أنهى وفرغ من كل حاجات الزمان والحياة ما هي إلاّ تهيئة للموت أو سابقة له بوقتٍ قصيرٍ.

ومن الشعراء الذين شكوا السجن جحدر بن معاوية[2] وهو من الشعراء (اللصوص)[3] وهذه

---

(١) ديوان بن مفرغ، مرجع سابق، ص١٨٥.

(٢) هو جحدر بن معاوية (أو ابن مالك) على اختلاف بين المصادر، عاش في زمن الحجاج وقصته معه مشهورة؛ انظر: ابن عساكر، **التهذيب**، ٦٧/٤؛ وانظر أيضاً الأمالي، ٢٨١/١.

(٣) **أشعار اللصوص وأخبارهم**، جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحي، دار طلاس للدراسات والترجمة، ط١، ١٩٨٨، ص١١.

ظاهرة برزت في العصر الأموي وتعدّ امتداداً لظاهرة (الصعلكة) في العصر الجاهلي ولكن التسمية اختلفت باختلاف القيم الدينية والاجتماعية وموقف الدين الإسلامي منها[١].

واللصوص خرجوا على قواعد المجتمع استنكاراً منهم لظلم المجتمع وولاته وحكامه. وفي هذا دلالة على ظلمٍ واسع اجتاح الدولة الأموية وإن هؤلاء النفر الذين رفضوا وتمردوا ما كان ظهورهم إلا رد فعل طبيعي على سياسات الحرمان والكبت التي مورست ضدهم[٢] من قبل العمال[٣] وولاة الأمر؛ فلهجت ألسنتهم بالشجب والاستنكار وكان الكثير منهم ممّن طالتهم أيادي الدولة وأودعوا السجون، فكانت شكواهم من السجن والسجان والقيود والحرمان، وبقيت ثلة منهم خارج حدود السلطات طريدة مشردة تعاني التهجير والنفي، فكان شعرهم منصباً على الخوف والتخفي والهروب من مكان لآخر كما هو حال الكميت بن زيد الذي ظلّ هارباً من هشام بن عبد الملك عشرين عاماً.

ويعد جحدر بن معاوية من أقل شعراء عصر بني أمية شعراً نسبةً إلى شهرتهِ، ولكنه يعد مُكثراً بالنسبة لغيره كما يؤكد ذلك عبد المعين ملوحي[٤]. ويطلبه الحجاج لما سمع عنه من فتكٍ وخروج على (المجتمع)، وبعد تحقيق معه لم يجد له من جريرة فيودعه السجن فأُتي له بأسدٍ ضارٍ وأعطي سيفاً، وانتهت المعركة لصالح الشاعر الذي كوفئَ بإطلاق سراحه[٥] وقال:[٦]

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضَنِكِ   كلاهُما ذو حَنَقٍ ومحكِ

ونحن إذ نسوق هذه القصة للتدليل على ظلم الحكام وولاتهم واستهتارهم بحياةِ الإنسان وهو يصارع حيواناً ضارياً دون اهتمام منهم بإنسانية الإنسان.

أما قصة الشاعر مع السجن فهي ذات شجون، يقول:[٧]

وعلمتُ أني إن أبيتُ نِزَالَه   أني من الحجاجِ لستُ بناج

---

(١) أشتار **اللصوص**، المرجع السابق ص١٢.

(٢) محمد الزير، **الحياة والموت**، مرجع سابق، ص٣٤.

(٣) حسين عطوان، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي**، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م، ص٤٤، وانظر أيضاً: الهادي حمودة الغازي، **الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية**، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٦م، ص٣٣.

(٤) عبد المعين ملوحي، **الشعراء اللصوص**، مرجع سابق، ص٧٧.

(٥) الملوحي، المرجع السابق، ص٧٤.

(٦) ديوان جحدر بن معاوية، مصدر، سابق، ص٩٦.

(٧) المصدر السابق، ص٨٠.

فالشاعر رضي أن يقابل الأسد لأن ما من خيارٍ آخر سوى مقابلة الحجاج، فكأنه اختـــار الحيوان على الإنسان لعله يتخلص من هذا المأزق الحرج أو أنه أراد أن يرسل برسالةٍ تنم عـــن سوء الزمان والحال فيميل الإنسان إلى الحيوان تاركاً بني جلدته لعل الحيوان ينصفه.

فمشيتُ أرســفُ في الــحديدِ مكبـــلاً   بـــالموتِ نفسي عندَ ذاكَ أُناجـــي

والنـــاسُ منهـــم شـــامتٌ وعـــصابـــةٌ   عـــبَراتهم بي في الحلوقِ شواجـــي

وفي هذين البيتين تصوير للواقعة فالناس بين شامتٍ ينتظـــر موتـــي وآخريـــن تخنقـــهم العبرات لما ستؤولُ إليه النتيجة المحسومة سلفاً، ولم يبق من أطراف الصورة إلا نفس الشـــاعر التي تحدثه بالموت.

وفي موضعٍ آخر يردُ جحدرٌ الفضل إلى الليالي التي منحته الحياة وأطلقته من أصفـــاده وأهوال السجن ويذكر السجن بعينه (ديماس) وهو سجنٌ كان للحجاج في مدينة واسط[١]:

إن الليالـــــي نجتْ بي فهي محسنةٌ   لا شــكَ فيه مِنْ الديماسِ والأســدِ

وأطلقتني مـــن الأصفـــادِ مخرجةً   من هول سجنٍ شديد البأسِ ذي رصدِ

كأن ساكنَـــه حيـــاً حشاشتُـــه   مـــيتُ تـــردد مِنه السُـمُّ في الــجَسدِ

هذا هو سجن (ديماس) الحيُّ فيه ميت؛ وإنها لصورة عميقة جداً تصوِّرُ هـــول الســـجن ومهانة الإنسان القابع فيه وانظر هذه المقطوعة لذات الشاعر وفيها يعدُ الشاعرَ السجن أبشع بيت خلقه الله وكأن جهنم أخذت وقودها منه والناس فيه أنواع تجمعوا من كـــل صـــوب ولكنـــهم لا يتحركون ولا يسعون بطلب الإعفاء من السجن[٢].

يا ربُّ أبغضُ بيتٍ أنت خـــالقه   بيتٌ بكوفانَ مِنه أشعلتْ سقرُ

مثوى تَجمع فيه الناسُ كـــلُهمُ   شتىً الامورِ فلا وردٌ ولا صدرُ

دارُ عليها عفاءُ الدهرِ موحشةٌ   من كل إنسٍ وفيها البدو والحضرُ

---

(١) ديوان جحدر، مصدر سابق، ص٨٣+٨٢.

(٢) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص ٨٤.

ويبدو من أشعار جحدر أنه كان مؤمناً فهو يتوجه إلى الله ليجيره من شر ما وقع فيه ويذكرُ حال السجناء وأنهم من بلادٍ مختلفة وألّفَ بينهم سجن (دوار) وهو سجنٌ في اليمامة قد أودعه فيه إبراهيم بن عربي[١] ويمضي الشاعر في قصيدته أن الزوّار ممنوعّون من دخول هذا السجن، ويلاقي أهله من خوفٍ وتشدّ أرجلهم بأغلالٍ خشبية فيها خروقٍ على قدر سعة أرجل المحبوسين[٢]:

إني دعوتُكَ يا إلهَ محمدٍ — دعوى فأولها لي استغفارُ

لتجيرني من شرٍّ ما أنا خائفٌ — ربُّ البرية ليس مثلك جار

كانت منازلنا التي كُنّا بِها — شتّى وألّفَ بيننا (دوارُ)

سجنٌ يلاقي أهلُه من خوفِهِ — أزَلاً ويمنعُ منهُمُ الزوارُ

يَغْشُونَ مقطرةً كأنّ عمودها — عُنُقٌ يعرّقُ لحمها الجزارُ

ويسأل جحدر أصحابه هل يرون دياره في صورة اليائس الحزين الشاكي من ظلم السجن الذي لو اتَّبع العدل لما نزلَ فيه وفي صورة غايةً في الدّقة تمتدُ أعناق السجناء كلما تحرك باب السجن لعل الحرية تأتي مع هذا الصوت[٣]:

يا صاحبيَّ وباب السجنِ دونكما — هل تؤنِسانِ بصحراءِ اللوى نارا

لو يُتبعُ الحقُ فيما قد منيتُ بهِ — أو يتبعُ العدلُ ما عَمَرتُ دوّارا

إذا تحرك بابُ السجنِ قامَ له — قومٌ يمدوّن أعناقاً وأبصارا

ويقول الشاعرُ من قصيدةٍ طويلةٍ يمتدحُ فيها ابن عربي[٤]:

فصيرتُ في السجنِ والحراسُ تحرسني — بعدَ التلصُصِ في برٍّ وأمصارِ

فهو بعد التلصص في الأمصار والبر يرسفُ في السجن والحراس من حوله، ويشتكي الشاعر من الهموم التي استحالت عليه أسقاماً موجعةً؛ وبعد فهو يخاطبُ نفسه والأمر جدُ طبيعي

---

(١) إبراهيم ابن عربي والي اليمامة أيام الحجاج.

(٢) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٨٥.

(٣) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٨٥.

(٤) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٨٨.

أن يكلم السجين نفسه مطالباً إياها أن لا تجزع مما ألمّ بها فكل نفسٍ لا بدَّ ذائقةٌ ما كَتَبَ اللهُ عليها ولا السجن يبعدُ منيةً ولا يقربها، ومن ثمَّ فالشاعرُ يفزعُ إلى الله يدعوه سراً وجهراً مخاطباً نفسه[١]:

أدعوه سراً وأناديه علانية   والله يعلمُ إعلاني وأسراري

ويخلص الشاعر إلى أن السعادة هي في الخلاص من النار والنجاة منها[٢]

وما السعادةُ في الدُنيَّا لذي أملٍ   إنّ السَعيد الذي ينجو من النارِ

بعد هذه المقدمة التي يصفُ بها حاله وحال السجن ويدعو ربَّه أن يخلّصه، يتوجه إلى ممدوحه:

وقد دعوتُ وما أكادُ أُسمِعهُ   أبا الوليد ودوني سجنُ دوّارِ

وهو في سجن محكم الإغلاق لا يمكن الانفلات منه.

في جوفِ ذي شرفاتٍ سُدَّ مخرجه   ببابِ ساجٍ أمين القفل صرّار

ثم يدعو ممدوحه للوقوف على حاله ومآله وأنه سُجِنَ مظلوماً وهو يرسفُ بالأغلال يعالجها ويصف تلك الأغلال ويصفُ حاله وهو يدور في أصقاع السجن ليلاً ونهاراً:

أدعوه دعوةَ مظلومٍ لينصُرني   ثم استغثتُ بذي نُعمى واخطارِ

أشكو إلى الخير ابراهيم مَظْلَمتي   في غيرِ جرمٍ وإخراجي من الدارِ

الدهرَ أرسفُ في كَبْلٍ أعالجه   وحلقةٍ قاربوا فيها بمسمارِ

ادورُ فيه نهاري ثم مُنقلبي   بالليلِ مزرور بأزرارِ

ويشكو جحدر من سجن (البيضاء)[٣] أو (المُخَيّسُ) في البصرة، وهذا الذي يدعى (البيضاء) جعل نهار الشاعر سواداً؛ والسجن يضمُ الأنذال ويذل الكرام وأن الخارج منه كمن أخرج من النار:

أقولُ للصحبِ في البيضاءِ دونَكمُ   محلةٌ سوّدت بيضاءَ أقطاري

---

(١) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٨٨.

(٢) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٨٨.

(٣) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٩١.

مــأوى الفتوّة للأنــذالِ مُذ خـــلُقتْ عند الكرام محل الذُل والعـــارِ

كـــأن ساكنهــــا من فقرهـــا أبـــداً لدى الخروج كمنتاشٍ من النارِ

ونختم حديثنا عن جحدر ببيتين من شعره يدعو على سجن دوار بالخراب والهدم وعلى بانيه بالموت بعد أن يدعو لساكنيه بالخلاص منه[1].

يـــا ربّ دوار أنقذ أهلهَ عجلاً وانقض مرائره مـــن بعدِ إبـــرام

رب ارمه بخراب و ارمِ بانيه بصولةٍ من أبي شبلين ضرغـــام

ومن الشعراء (اللصوص) الذين أبدوا شكايةً كبيرة من السجن وما يكابده المرء منه (دوير بن دؤاله)، الذي يقول في إحدى قصائده:

أسجناً وقيداً واغتراباً وعسرةً وذِكَـــرى حبيبٍ؟ إن ذا لعظيمُ

وإن امرأ دامت مواثيقَ عَهده على مثــلِ مـــا لاقيته لكـــريمُ[2]

والبيت الأول يجمع كل ما ينتاب السجين من صعاب وشكوى فهو شــــاكٍ مـــن الســـجن والقيود والاغتراب والعسرة زد على ذلك كله ذكرى الحبيب، باستفهام استنكاري يضع كـــل مـــا تقدم موضع الشجب والشكوى والإدانة ثُّم يُحدِّث الشاعر نفسه، ومن الطبيعي أن يحدث المسجون نفسه أكثر ما يوجّه الحديث إلى نفسه لانقطاعه إليها دون الناس أو لأن أقرانه مـــــن المســـاجين باتوا بنظره جزءاً من السجن وجموده، بأن هذه الأشياء مجتمعةً أو فراداً شيءٌ عظيم لا يطـــــاقُ احتماله.

ومن شعراء العصر الأموي الذين شكوا من السجن وأيامه (الخطيم العكلي المحـــوزي)[3] فنراه يقول ومن قصيدة طويلة تنوف عن الستين بيتاً يستعطفُ قومه وهو مسجون بنجران يقاسي كل صنوف الهموم، والشكوى فيها واضحة جليةٌ[4]:

بنجران يُقري الهمَّ كل غريبةٍ بعيدة شأو الكلم باقية الأثرِ

---

(١) ديوان جحدر، المصدر السابق، ص٩١.

(٢) دوير بن دؤالة، شاعر لص عاش في العصر الأموي، انظر الشعراء اللصوص، الملوحي، مرجـــع ســـابق ص٢٦.

(٣) وهو من شعراء العصر الأموي انظر: نورى حمودي القيسي، **شــــعراء أمويـــون**، بغـــداد، ١٩٧٦، ج١، ص٢٤١-٢٧٣؛ وانظر ديوانه، جمع وتحقيق: الملوحي، ص٤٩ وما بعدها.

(٤) الملوحي، مرجع سابق، ص٥٨.

ثم يستذكر الشاعر أيامه الخوالي متغنياً بماضيه وانتصاراته وسيفه وما كان منه حينَ كان حُراً طليقاً. ويتمنى الشاعرُ لو أنه يبيت ليلة واحدةً في بلده.

ألا ليتَ شِعَري هل ابيتنَ ليلةً   بأعلى بُلَىَ ذي السلام وذي السررِ

ويمضي في قصيدته متسائلاً هل يعودُ يوماً إلى القطا غير خائف بين أهلة وقبيلته، وهل يسمع بكاء الحمام ويرى الجياد التي كان يركبها والنوق، في كل ذلك يجد الشاعر تعزيةً لنفسه ومخرجاً من واقع السجن الأليم[1]:

وهل أهبطنَ روضَ القطا غيَر خائفٍ   وهل أصبحَّن الدهَر وسَطْ بني صخرِ

وهل أسْمَعَنْ يوماً بكاءَ حمامةٍ   تنادي حماماً في ذرى تنضب خُضرِ

وهل أرَيَنْ يوماً جيادي أقودُها   بذاتِ الشقوقِ أو بأنقائا العفرِ

وهل أقطعنَّ الخرقَ في عيدهيةٍ   نجاةً من العيدي تمرحُ للزجرِ[2]

وعندما يشتد به الحال في السجن مما يكابدَّه تراه يستنهضُ همم أبناء عمه ويستثيرهم ليستنقذوه، مُذكراً إياهم بمكانته فيهم وقيادته لهم ودفاعه عنهم باليدين والنحرِ[3]:

بني محرزٍ مَنْ تجعلوَن خليفتي   إذا نابكَم يوماً جَسيم من الأمرِ

فقد كنتُ أنهى عنكُمُ كُلَّ ظالمٍ   وأدفعُ عنكم باليدين وبالنحرِ

مَعنَّ اذا خصمٌ أدلَّ عليكم   بني محرزٍ يوماً شددتُ له أزري

نلاحظ من هذه الأبيات رائحة الشكوى من السجن وعزل الشاعر عمَّا حوله واستنجاده ببني قومه لينصروه. وهذا عبد الله بن الحر الجعفي[4] يشكو سجن مصعب بن الزبير له وكان والياً لأخيه عبد الله على الكوفة والبصرة[5]، يقول عبد الله:

مَن مُبلغُ الفتيانِ أنَّ أخاهم   أتى دونهَ بابٌ شديدٌ وحاجبُهُ

---

(١) الملوحي، مرجع سابق، ص٦١.

(٢) تَنْضبُ: شجر شوكي ينبتُ في الحجاز؛ ذات الشقوق: موضع قرب مكّة // النقاء : الرمل // العُفر: البيضاء؛ الخرق: الأرض الواسعة : العيدهية / العيدي: النجائب المنسوبه إلى صاحبها العيدي.

(٣) ديوان الخطيم العكلي، مصدر سابق، ص٦٤.

(٤) شاعر أموي متمرد للمزيد انظر: حسين عطوان، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي**، مرجع سابق، ص٧٨-٧٩.

(٥) ديوان عبد الله بن الحر الجعفي، جمع وتحقيق: الملوحي، مرجع سابق، ص١٨٧.

بمنزلةٍ ما كـــان يَرضى بمِثلهــــــــا　　إذ قـــامَ عَنتَّهُ كبــولٌ تجاوبــــــه

على الساقِ فــوقَ الكعبِ أســودُ صامتٌ　　شديدٌ يُداني خَطوه ويقاربــــــــــهُ

ونما كان ذا مــن عظمِ جرمٍ جَنيتــــــه　　ولكنْ سعى السَّاعي بمـــا هُو كاذبه

فيستنجد الشاعر بأقرانهِ وهو في سجن شديدُ الإحكام وحاجبٌ يقفُ عليه، وهذه المذلة لـم يكن ليرضى بها الشاعر وهو حرٌ طليق، ثم يصف الأغلال على ساقه وفـــوق الكعـب شـديدة تُقصرُ خطواته وتمنعه حرية المسير ؛ كل ذلك لم يكن بعظيم جريمة ارتكبها، وأنَّ الأمرَ لا يعـدو كونه وشايةٍ من أحد الساعين لدى الأمير وهو كاذبٌ. ثمّ يوجه الشاعر خطابه صـــوبَ الخليفـة مستنكراً الجزاء الذي حلَّ به فهو مطيعٌ لا ينكث بيعةً لإمامه وكم ذبَّ عنهم بالسيف وجالد[١].

دعاني إليه مصعبٌ فـــأجبتُه　　نهاري وليلـــي كلُـه أنا دائبـــهُ

فكـآن جزائي إذ أنختُ ببابهِ　　حُجولٌ وأحراسٌ وصعبٌ مـراتبــه

فإني لـــم أنكــث لهـم بيعةٍ　　ولـم آت أمراً محدثاً أنـــا راهبُـهُ

فأنّى لكُــمْ مِثلي يُذبب عنكُــم　　إذا الصــفُّ دارت للقـــراعِ كتائبُه

والقصيدة تقارب العشرين بيتاً يضمّنها الشاعر شكوى من السجن ويذكر آل الزبير بما كان منه أيام المختار قبل الإطاحة به.

وللشاعر وقفة أخرى مع السجن، إذ كان قد حبس معه شخصٌ آخر يدعى عطية وأخرج عطية وترك عبد الله:

أقــولُ لـــه صبراً عطيُّ فإنّمـــــــــا　　هو السجــنُ حَتىَّ يجعل اللهُ مــخرجــا

أرى الدهرَ لـــي يومين: يوماً مُطَّرداً　　شريداً ويوماً في الملوكِ متوجــــــــاً

ويبدو أن انكسار الشاعر هنا واستسلامه جعله يرفع الشكوى إلى الله ليخرجه مما هو فيه.

وكان السجن في العصرِ الأموي غير مقصور على الرجال فسجنت النساء أيضاً، وهـــذا ابن الحرّ يُداهم السجن ويخرج منه امرأته؛ ولأن الشاعر في هذه المرة حُر وطليـــق لـم يشـكُ ويستسلم بل دبّر وهاجم السجن[٢]:

---

(١) ديوان عبد الله بن الحر الجعفي، المرجع السابق، ص١٨٧.

(٢) ديوان ابن الحر، مصدر سابق، ص٢٠٥.

أَلَــمْ تَعلمَي يـــا أُمِّ تــوبة أنَنــــــــي أنـــا الفارسُ الحـــامي حقائقَ مذحـــج

وأني صبحــتُ السجنَ في رَونــق الضحى بكلِّ فتىً حامي الذمـــارَ مُدجــــج

وللشاعر أشعارٌ كثيرة تزدحمُ في ديوانه يشكو فيها من السجن، وما يعانيه السجين مـــن قيودٍ وأغلال وعُزلةٍ واغتراب وسوء معاملة. ويعدُّ مالك بن الريب المـــازني[١] مـــن الشـــعراء الذين سجنوا وشكوا السجنَ، فها هو يقول مخاطباً رفاقه وهو قابع في السجن[٢]:

أتلحقُ بالريّب الرفاقُ ومالكٌ بمكةَ في سجن يُعنيه راقبه

أي هل يخرج أصحابه من السجن ويلحقون بأبيه (الريب) وهو يقبعُ في السجن محبوساً مُعذباً بمكة. وكان قد حُبس في سرقة.

ولمالك هذا صلةٌ باللصوص من الشعراء الأمويين وله معهم حوادث وقصص كثيرة وهـــو مشهور بالقتل وله قصائد كثيرة يشكو فيها الحكم الأموي[٣]. ويعجُ ديوان (القتـــال الكلابـــي)[٤] بقصائد تفنن من خلالها بذكر السجن والشكوى منه وما يلاقيه في السجن. ويعدُّ القتال الكلابـــي من الشعراء اللصوص في العصر الأموي وقصة تشرده ترويها كتب الأدب؛ إذ إنه قتل ابن عمه الذي منعه من زيارة حبيبته (وهي ابنة عمه) دفاعاً عن النفس وهرب بعد هذه الحادثة[٥] وطالبتـه الدولة وأهل القتيل وألقي عليه القبض أخيراً وأودع السجن بعد طول عناء وتشـــرد[٦]. وكـــان السجان يعامله معاملة قاسية ممّا اضطره إلى قتله والهرب من السجن[٧]:

وكاليُ بابِ السجن ليس بمنته وكان مزاري منه ليس لمؤتلي

وقد أخذه الشاعر على حين غرة عندما رآه واقفاً بالباب، وكان يطالبه بمعاملة حسنة والسجان يلجُ بالإساءة وشد الوثاق عليه، فقتله ثم ولّى هارباً من السجن، وقال في ذلك:

ولما رأيتُ البابَ قد حيلَ دونَـــــه وخفتُ لحاقاً من كتـــابٍ مؤجّـــلِ[٨]

---

(١) شاعر أموي من اللصوص (ت ٦٠هـــ)، انظر ترجمته وأخباره، **شعراء أمويون**، ج١، ص١٨٥.

(٢) ديوان ابن الحر، مصدر سابق، ص٢٥٥.

(٣) انظر، الملوحي، **أشعار اللصوص وأخبارهم**، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٤) ديوان القتال الكلابي، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦١، ص٥٨.

(٥) تفاصيل هذه الحادثة، ديوانه، ص ١٨ وما بعدها.

(٦) ديوان القتال الكلابي، مصدر سابق، ص١٠.

(٧) ديوان القتال، مصدر سابق، ص٧٥.

(٨) ديوان طهمان الكلابي، مصدر سابق، ص٧٦.

إذا قلتُ رفهّني من السجن ساعةً تداركْ بها نعُمى عليّ وأفضـــل

يشدُ وثـــاقي عـــابساً ويتلني إلى حلقاتٍ في عمـــودٍ مُرمـــلِ(١)

أقول لـــه والسيفُ يعصبُ رأسهَ أنا ابنُ أبي أسمـــاءَ غيـــر التنحلِ(٢)

تركـــت عتاقَ الطيرِ تحجلُ حَـــولَه عـــلى عُدواء كـــالحـــوار المـــجدّلِ

وفي الأبيات شكوى من سوء معاملة السجان ماثلة للعيان، ولما أن وصلت هذه الشـــكاية للحدَّ الذي لا يطاق، كان ردُّ الفعل قوياً أفقد السجان حياته. ولاحظ الصورة في البيـــت الثـــاني، صورة العمود (المرمّل) هو الملطخ بالدماء إيماءً من الشاعر لكثرة التعذيب الذي ينالُ الســـجين وتبقى أثار الدماء ماثلةً على حلقاتِ العمود.

ويهرب الشاعر من السجن إلى الفيافي والبراري خوفـــاً مـــن أن يعيـــده الأمـــير إلـــى السجن(٣).

أُيرسلُ مروانُ الأميرُ رسالةً لآتيه إني إذن لمُضلُّ

ويفضل الشاعرُ العيش في البريّة ويصاحبُ الحيوان المفترس لأنه عِلمَ مآســـي الســـجن وكابدها فهو يرى إن رفقة النمر في الغار بعيداً عن الناس أفضل من السجن(٤):

ولي صاحبٌ في الغارِ هَدَّك صاحباً هـــو الجونُ إلاّ أنَّه لا يعـــللُ

والجون أو أبو الجون كنيةُ النمرِ(٥) ولنا أن نقول أن الشاعر يرى في صحبة النمـــر مـــا هو افضل من السجان الذي شدّ وثاقه عابساً؛ وإن كانت هذه الفكرة أقرب للأسطورة(٦) إلا أن مـــا يهمنا منها إثبات أن الشكاية من السجن وأهواله ظاهرة جلية.

---

(١) يتل: يجر بعنف.

(٢) التنحل: الإدعاء.

(٣) ديوان القتال، مصدر سابق، ص٧٧.

(٤) ديوان القتال، مصدر سابق، ص٧٧.

(٥) **اللسان**، مادة (جون).

(٦) **ديوان القتال**، مصدر سابق، ص٢١.

وهذا "طهمان الكلابي"[١] يشكو من السجن الذي أبعده عن حبيبته ويتمنى لو أن تُفك قيوده ويُخلى سبيله ليلتقي بليلى:

لعلكَ بعدَ القيدِ والسجنِ أن تُرى   تمرُ على ليلى وأنتَ طليقُ

وهذه القيود التي يرسف بها الشاعر تحجب عنه الاتصال بحبيبته بسبب هذا القيد الذي يعضُ رجليه.

ألا طرقت ليلى على نأي دارِها   وليلى على شحطِ المزارِ طروقُ

أسيراً يعضُ القيدُ ساقيه منهما   من الخَلَقِ السُمرِ اللَّطاف وثيقُ

(والسمهري العكلي) يشكو القيود التي تكبل قدميه وتحدُ من قدرته على الحركة، ويصفُ قعقعةَ باب السجن وخوف المساجين وعلوّ الباب وانعدام الرؤيا من خلفه وتتصاعد الشكوى إلى أن يضم هذا السجن كرام القوم أمّا اللؤماءُ فأحرار طلقاء.

لقد جمع الحدادُ بين عصابة   تساءل في الأسجان ماذا ذنوبها

مقرّنة الأقدام في السجن تشتكي   طنابيب قد مست مبينا علوبها

إذا حتراسي قعقع الباب أرعدت   فرائصُ اقوامٍ وطارت قلوبها

ترى الباب لا تسطيع شيئا وراءه   كأن في أسلحتها كعوبها

بمنزلةٍ أما النيم فآمن   بها وكرامُ القوم بادٍ شحوبها

وكذلك الأمر بالنسبة للحبيبة فيشكو الشاعر من انعدام إمكانية رؤيتها والسلام عليها والسبب القيود التي غلت قدميه[٢]:

لقد طرقت ليلى ورحلي رهينة   فما راعني في السجن إلا سلامها

والسجنُ عند الفرزدق لا يمنعه رؤية الحبيبة فقط بل يذهله عن ذكر كل قريب[٣].

وقد حال دوني السجن حتى نسيتها   وأذهلني عن ذكر كل حميم

---

(١) شاعر أموي توفي ٨٠هـ، **ديوان طهمان بن عمر الكلابي**، شرح أبي سعيد السكري: تحقيق: محمد جبار المعيبد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م.

(٢) **شعراء أمويون**، مرجع سابق، ج١، ص١٤٥.

(٣) **ديوان الفرزدق**، مصدر سابق، تحقيق: محمد طراد، القاهرة، ١٩٣٦، ص٨١٥.

وكذلك الأمر لدى (العرجي) الذي يحول السجن بينه وبين حبيبته[١]:

أسائل عن وجناء في السجن جارها   لعمر أبيها إنني لمكلَّفُ

وأنّى لك وجناء والسجن دونها   ويغلق دوني ذو أواس مشرف

وفي الرجل مني كبْل قّين يؤودها   وثيق إذا ما جاءه الخطو يهتف

كأن شبا مسماره وهو ناجمٌ   شبا ناب قدم بضرب الشول يصرفُ

لم يترك الشعراء في السجون الأموية – والزبيرية- هماً من هموم الحياة إلا وقد وقفوا عليه، وكل شيءٍ في السجن كان محيطاً بهم إلاّ وذكروه؛ فقد ذكروا القيود التي أثقلت خطوهم واعتصرت دماء أرجلهم وذكروا السجان وملامح وجهه القاسية وشدة غلظته عليهم، وشكوا من أبواب السجن المؤصدة والتي أوصدت حتى دون خيالاتهم حتى أن الحبيبة (الطروق) التي تطرقهم كل يومٍ امتنعت عنهم في السجن لما هُم فيه من همٍ وقسوة.

لقد ذكر الشعراء ما ألم بهم من غوائل السجن والظلم الذي لحقهم وكان بعضهم قد سُجِن ظلماً ودونَ جريرةٍ تستحقُ ما هم فيه من ضنك.

إن الشكوى من السجن لم تكن إلاّ امتداداً للشكوى من مظاهر الظلم خارجه في عصرٍ كان الظلم والطغيان والفساد الإداري والمالي والديني شيئاً رئيساً في تهديم ركن دولته (الأموية).

---

(١) **ديوان العرجي**، مصدر سابق، ص١٥٥.

ومع إدراك النقاد لأهمية الصورة، لم يتوصل أحد إلى تعريف جامع مانع لها، فالجهود التي درست الصورة كانت مزيجاً من الاجتهادات المتأثرة بثقافة الدارس ورؤيته لطبيعة الشعر ووظيفته فضلاً عن موقفه من التراث والمعاصرة، ويمكن القول إن بعض دارسي الصورة، تمتعوا بحرية في إيجاد أنماط للصورة الفنية مستقاة من وظائفها، أو صفاتها، نحو الصورة الجزئية والكلية، فكانت النتيجة أعداداً من الأنماط تفتقر في أغلبها إلى الدقة في النظر وشمولية المصطلح.

وبالرغم من اختلاف القدامى والمحدثين في فهمهم للصورة وعدم اجتماعهم على تعريف واحد جامعٍ مانعٍ لم يكن كلياً، بل هناك أمور ثابتة رددوها أثناء تعريفهم، كالسرقات الأدبية، والقدم والحداثة، وماهية الشعر ووظيفته، واللفظ والمعنى، والحقيقة والمجاز، ولعل النتيجة التي نلمسها من اختلاف العلماء في تعريف الصورة، أن دراسة الأدب عملية حيوية مستمرة.

والصورة كما يراها الرباعي "أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن، شريطة أن تكون هذه الهيئة معبّرة وموحية في آن"[١]، وهي الوسائل التي يحاول بها الأديب نقل فكرته وعاطفته معاً إلى قرّائه أو سامعيه"[٢].

ولتوضيح مفهوم الصورة لا بد من شيء من التفصيل بتعريفها فهي (تركيبة عقلية تحدث بالتناسب أو بالمقارنة بين عنصرين هما في أحيان كثيرة عنصر ظاهري وآخر باطني، وأن جمال ذلك التناسب أو المقارنة يحدد بعنصرين آخرين هما الحافز والقيمة، لأن كل صورة فنية تنشأ بدافع وتؤدي إلى قيمة[٣]، وهي "تشكيل جمالي تستحضر فيه لغة الإبداع الهيئة الحسية أو الشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة عليها قدرة الشاعر وتجربته وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة دون أن يستبد طرف بآخر، كما يراه (عبد الإله الصائغ)، أي أن ثمة توازناً دقيقاً بين الحقيقة والخيال في تركيبة الصورة"[٤].

وأشكال الصورة تختلف حسب طبيعة الشاعر ونفسيته، على شكل إشارات بسيطة أو تشبيه تتناسب أجزاؤها، ومنها ما هو أكثر تعقيداً، بحيث تقوم على إيجاد علاقات بين أشياء متباعدة ومتنافرة أيضاً[٥].

---

(١) الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص٨٥.

(٢) أحمد الشايب، **أصول النقد الأدبي**، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٢٤٢.

(٣) عبد القادر الرباعي، مرجع سابق، ص٨٥-٨٦.

(٤) عبد الإله صائغ، **الصورة الفنية معياراً نقدياً**، منحنى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص١٥٩.

(٥) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، نشر جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٨٠، ص١٥.

والصورة كما يراها (عساف سيمون) أداة توحيد بين أشياء الوجود وأداة امتلاك وحفـــاظ، وصهر، وإعادة تركيب، بها تمتلك الأشياء امتلاكاً كلياً تنفذ إلى حقيقتها وتتكشف لنا عاريـــة – لا لبس ولا غموض فيها وهي بهذا المعنى رؤية فكرية أو عاطفية في لحظة من الزمن"[١].

ووظيفة الصورة لدى (أدونيس) كيفية وجود وكيفية تعيين من حيـــث إنـــها أداة المشـــاعر والأفكار، وبها تؤدي وظيفة الارتياد والكشف والتجسيد بالصورة[٢].

والعناصر التي تقوم عليها الصورة، يمكن حصرها في عنصرين هما: العنصر الظـاهري، والعنصر الباطني.

فالعنصر الظاهري أو الحسي يقف في مقدمة المعطيات التي تشكل منها الصـــورة، كمـــا يراها علي البطل[٣].

وأصل الصور الحسية لدى (رينيه ويلك) يرد إلى "أصل جمالي مشتق من التقمص الوجداني"[٤].

وهذه الحسية في الصورة يعتبرها الرباعي: "كل شيء تقوى على رؤيتـــه أو ســماعه أو لمسه أو تذوقه"[٥]، وقيل "يجب أن لا تعتمد القصيدة في إيصال مغزاها على الأسلوب المجرد بـل عليها بدلاً من ذلك الاعتماد على الصور الحسية"[٦].

ونظراً لتعدد أنواع الحواس ينتج اختلاف في فهم الصور، وهـذا التنـوع فـي الصـورة الحسية، كالذوقية والشمية واللمسية والحركية.. يفرز اختلافاً بين النقاد في تفضيـل نمـط مـن الصور الحسية على غيره.

---

(١) سيمون ساسين عساف، **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢، ص١٥.

(٢) أدونيس، **زمن الشعر**، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٨، ص١٥.

(٣) علي البطل، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الـــهجري**، ط٣، دار الأندلـس، بـيروت، ١٩٨٣، ص٣٠.

(٤) رينيه ويلك، وأوستن وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة: محيي الدين صبحي، مراجعة حسـام الخطيـب، ط٢، ١٩٨١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص٢٤٠.

(٥) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص٨٦.

(٦) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، المرجع السابق، ص٨٦.

أما العنصر الباطني فهو: "أفكار الشاعر ونفسيته التي هزتها تجربة عميقة"[١]، ويمكن أن تعد الصورة تلك الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة"[٢].

والتجربة الشعرية ما هي إلا "الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينُم عن عميق شعوره وإحساسه"[٣].

ولا بد من توحد العنصر الظاهري والباطني "ففي كل صورة تلتقي الذات بالطبيعة الخارجية لتولدا معاً حياة جديدة"[٤]، وإذا توحدا لا بد أن يتهيأ لهذا المولود أسباب المشاركة والحيوية "فالذي يضفي على الصورة فاعليتها ليس هو وضوحها وحيويتها بقدر ما تتميز به هذه الصورة من صفات باعتبارها حدثاً عقلياً له علاقة خاصة بالإحساس"[٥].

والصورة مختزنة في عقل الشاعر إلى أن يثيرها شيء معين فتثار بطريقة ما تبعاً للحالة النفسية، مع أن العاطفة لا بدراستها أو تحليلها، بل لا بد من عرض بواعثها التي جعلت الأديب محباً أو متحمساً، وهذا العرض يكون بالخيال، فالخيال إذن أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية سامياً أو عادياً"[٦].

والوسائل التي تطرح الصورة إلى الواقع متباينة ومتعددة المستويات، تختلف حسب نوعية التجربة الشعرية أو الباعث النفسي؛ لذا فهي متعددة في أشكالها من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية، تتحد في كونها وسائل متعددة لشيء واحد هو الصورة، غير أن هذه الوسائل الفنية تختلف في طاقتها ومدى تأثيرها من شكل لآخر ممّا يؤدي إلى تباين قوة تأثير الصورة في النفس[٧].

والحديث عن العنصر الباطني والظاهري يقودنا للحديث عن الانفعال الذي يتحرك في كل أعضاء الإنسان فينبهها، ويسلك كل الطرق الشعورية ليفتحها فيتيقظ الإنسان، ويتأمل تجربته ويحاول نشر أجزائها، وضمها في وحدات متناسبة متعادلة يفتش لها عن موضوعات أو صور تجملها "فالتجربة مرتبطة بالشعور والحواس أبداً وإن هي إلاّ نتيجة من نتائج التأمل الوجداني

---

(١) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص٨٧.

(٢) محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي الحديث**، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٧٤، ص٤٤٣.

(٣) محمد غنيمي هلال، **النقد الأدبي الحديث**، المرجع السابق، ص٣٨٤.

(٤) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص٨٨.

(٥) رتشاردز، **مبادئ النقد الأدبي**، ترجمة: مصطفى بدوي، مراجعة: لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، مصر، ١٩٦٣، ص١٧٢.

(٦) أحمد الشايب، **أصول النقد الأدبي**، مرجع سابق، ص٢١٠-٢١١.

(٧) محمد أحمد محمد، **عروة بن أذينة، حياته وشعره**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٧م، ص١٣٧.

والانتباه الودي إلى الصفات والأشكال الوضعية المحسوسة"[١].

أما كيفية تولد الصورة يقول حاوي "ويقع في عتمة ضميره – يعني الأديب – وحتى إذا عرض للوصف وتقابلت وجوه المظاهر بعضاً ببعض تتولد الصورة"[٢].

والشاعر غالباً ما يستمد صوره من الواقع، فيهتم فكره بهذه الصورة، وتتمكن الصورة في عقل الشاعر في منطقة لا واعية، لكنها تومض لصاحبها بطريقة غير مقصودة تحت ضغط الانفعال أو في ظروف أخرى مواتية، وعلى ذلك فأساس الصورة شعور وجداني غامض.

مصادر الصورة الشعرية في شعر الشكوى

الثقافة

استمد شعراء الشكوى صورهم من عدة روافد أهمها الثقافة الدينية والتاريخية واستمدوا أيضاً من الطبيعة والحيوان وسخروا كل ما يستطيعون لرفد هذه الصور.

والثقافة الدينية من روافد ثقافة الشعراء وتأثرهم بالإسلام واضح، فلقد استخدموا مصطلحات دينية وألفاظاً قرآنية، انظر مثلاً قول الراعي النميري[٣]:

أوَلِيَّ أمرِ الله إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

وكذلك قوله[٤]:

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلا

وكذلك استخدام ألفاظ من القرآن الكريم في شعر الشكوى[٥]:

قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيِّعوا التهليلا

فقد استخدم كلمة (الماعون) الواردة في القرآن الكريم[٦].

---

(١) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص٨٨.

(٢) إيليا حاوي، **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، ط٣، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، ص٢٥.

(٣) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٢٢٩.

(٤) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٢٢٩.

(٥) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٢٣٢.

(٦) سورة الماعون، آية: ٧.

ومن الأمثلة على تأثرهم بالقرآن، قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[١]:

ألا أبلـــغ معاويـــة بـــن حـــرب أمـــير المؤمنيـــن نبـــا كلامـــي

فإنـــا صـــابرون ومنظروكـــم إلـــى يـــوم التغـــابن والخصـــام

ومن الأمثلة على تأثرهم بالقرآن قول جحدر بن معاوية[٢]:

يـــا صـــاحبي وبـــاب السـجن دونكمـــا هـــل تؤنســـان بصحـــراء اللـــوى نـــارا

ولم يكن توظيف المصطلح الديني عبثاً في قصائدهم فهو إشارةٌ إلى أن المشتكي هو مسـلم ومطلع على النصوص الدينية التي تحرم ما يقوم به الحكام وأتباعهم من ظلم للعبـــاد ويذكرهـم بالمساواة التي دعا لها الإسلام، والحرمات التي ينتهكونها، وهـذا يزيـد بـن مفـرغ يوظـف المصطلح الديني في شعر الشكوى (صليت، وبيت مكّة...)[٣]:

وأطعمـــت مـــا أن لا يحـــل لآكـــلٍ وصليـــت شـــرقاً وبيـــت مكّـــة مغـــربُ

وهذا جحدر بن معاوية يلوذ بإله محمد هرباً إليه من الظلم ولكنه يستغفر الله أولاً[٤]:

إنـــي دعوتـــك يـــا إلـــه محمـــد دعـــوى فأولـــها لـــي اســـتغفار

وقوله أيضاً[٥]:

ومـــا السـعادة فـــي الدنيـــا لـــذي أمـــلٍ إن الســـعيد الـــذي ينجـــو مـــن النـــار

وهنا لفتة من الشاعر بعد أن قنط من عدالة الحكام فيرى إن السعادة هي العتق من النار.

ومن مصادر الصورة وروافدها التأثر بالشعراء الآخرين فهم على اطـــلاع بأشـــعار مـــن سبقوهم وعاصروهم، وقد ضمنوا بعض أبياتهم معاني من أبيات شعرية أخرى؛ انظر مثلاً قـــول يزيد بن مفرغ والذي ضمن أحد أبياته شعراً للبيد بن ربيعة[٦]:

إذ دعانـــا لزوالتـــه فأجبنـــا كـــل دنيـــا ونعمـــة لـــزوال

---

(١) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، مصدر سابق، ص١٦١.

(٢) **ديوان جحدر بن معاوية**، مصدر سابق، ص٨٥.

(٣) **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري**، مصدر سابق، ص٥٥.

(٤) **ديوان جحدر بن معاوية**، مصدر سابق، ص٨٥.

(٥) **ديوان جحدر بن معاوية**، مصدر سابق، ص٨٥.

(٦) **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري**، مصدر سابق، ص١٨٥.

في إشارة لبيت لبيد بن ربيعة[١]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل

ومن مصادر الصورة ثقافتهم التاريخية ومعرفتهم بالأنساب كقول يزيد بن مفرغ لمعاوية في أمر زياد بن أبيه[٢]:

ألا ابلغ معاوية بن حربِ   مغلغلة من الرجل اليماني

اتغضب أن يقال أبوك عفٌ   وترضى أن يقال أبوك زانِ

فأشهد إن رحمك من زيادِ   كرحم الفيل من ولد الأتان

والحكمة من الروافد التي رفدت صورتهم وغذتها، واستقاها الشاعر من طول تجربته بالحياة والناس. ومثلها قول هند بنت زيد الأنصارية في مقتل حجر بن عدي[٣]:

فإن تهلك فكل زعيم قوم   من الدنيا إلى هلك يصير

يتبين أن ثقافة الشعراء المتنوعة، دينياً وثقافياً، واجتماعياً، وتاريخياً، قد أفادتهم في تشكيل صورهم فأبدعوا في ذلك.

الحيوان:

ويعد الحيوان أحد مصادر الصورة في شعر الشكوى فقد وظف الشعراء الحيوانات وصفاتها في هذه الصور وقد استخدموا (الذئاب والبقر والفيل والحمار والأسد ...) فهذا كعب الأشقري[٤]:

إن كنت تخفظ ما يليك فإنما   عمال أرضك في البلاد ذئاب

واستخدم الشاعر هنا الذئاب ليدلل على سوء معاملة العمال وأنهم يشبهون الذئاب في اغتصابهم لمال الناس وحرماتهم.

ومن الصور التي استخدموا فيها الحيوان قول الشاعر أنس بن أبي أناس لحارث بن بدر الغراني التميمي حين ولي إحدى كور الأهواز[٥]:

---

(١) **ديوان لبيد بن ربيعة**، تحقيق: إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢، ص٢٥٤.

(٢) **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري**، مصدر سابق، ص٥٩.

(٣) الطبري، **ديوان الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٢٣٢.

(٤) ديوان كعب الأشقري، مصدر سابق، ص١٥.

(٥) الجاحظ، أبو عثمان، **الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، ج٣، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩، ص١١٦.

أحـار بـن بـدر قـد وليـت إمــارةً فكـن جـرذاً فيـها تخـون وتسـرق

فالشاعر يرى أن الوالي يجب أن يكون جرذاً في السرقة والاختباء لأن صفات القائد في ذلك الزمان الذي شاع فيه الفساد تتطلب أن يكون خائناً وسارقاً تماماً كما الجرذان.

ومن صور استخدم الحيوان أيضاً قول يزيد بن مفرغ(١):

فأشـهد أن رحمـك مـن زيـادٍ كرحـم الفيـل مـن ولـد الآتـان

أراد بهذا التصوير إدخال صورة الحمار والفيل تحقيراً لكل من زياد ومعاوية.

ومن استخدامهم للحيوان في الصورة الشعرية تشبيه معاوية بالأسد في الشجاعة في قول هند بنت زيد الأنصارية(٢):

أخـاف عليـك مـا أردى عديـاً وشـيخاً فـي دمشـق لـه زئـير

ومنه كذلك قولها:

ألا يـا ليـت حجـراً مـات موتـاً ولـم ينحـر كمـا نحـر البعـيرُ

في إشارة من الشاعرة إلى البنية القوية للبعير يقاد وينحر ظلماً. فحجر يمثل المعادل الموضوعي لقوة الحق وناحره هو الظالم.

مواد الصورة:

استعان الشعراء بالطبيعة ليشكلوا صورهم من موادها، فاختاروا لتشكيل صورهم ألواناً من التشبيهات، وأنماطاً من الاستعارات، ونماذج من الكنايات، ولم ينسوا البديع ليحققوا من خلاله الجمال والمتعة في اعتدال فتوسلوا بمختلف ألوانه، فأمدتنا الصورة بالمتعة الفكرية والمتعة الفنية في تناسق فني(٣).

ويتوسل الفن عامة "بالأداة ليعكس كل ما يريد الفنان أن يعبر عنه ومن هنا فإن الدرس الحقيقي للأدب ينطلق من زاوية الأداة التي نستطيع من خلال تفسيرها أن نتبين الإطار الإنساني لتجربة الأديب وموقفه الفكري، والمدرسة الفنية التي ينتمي إليها، أي أن تشكيل الأديب لمضمون

---

(١) **ديوان يزيد بن مفرغ**، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٨٥.

(٣) محمد غازي مقابلة، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، دراسة أدبية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٩، ص٩٦.

تجربته، وكيفية استخدامه للصورة، وتركيبه للغة، تكون عوامل حاسمة في تفسير تراثه الأدبي وتقويمه"[١].

التشبيه:

واستخدم الشاعر التشبيه ليشكل صورته، فهو يبذل الجهد لتحقيق العلاقة بين عناصر الواقع والفن، فتوسل الشاعر بالتشبيه ليظهر علاقة جديدة بين شيئين، يشتركان في أمور وصفات تحقيقاً للمتعة والفائدة التي يرمي إليها الشاعر.

ولعل أحسن التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها، ويفسر الجرجاني الصفات المشتركة بين طرفي التشبيه بأنها على نوعين أحدهما: "أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأول كتشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل كتشبيهات الشاعر الحسية المجردة، والآخر أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأول وهو الشبه الذي يحصل بضرب من التأويل والاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها، ومرة في حكم لها، ومقتضى الحكم، وربما انتزع وجه الشبه من شيء واحد، وربما انتزع من عدة أمور"[٢].

ويقول ابن سنان عن التشبيه: "إن أحد الشيئين مثل الآخر في بعض المعاني والصفات، ولن يجوز أن يكون أحد الشيئين مثل الآخر في جميع الوجوه"[٣].

وتقوم أكثر صور الشكوى على أساس التشبيه المرتبط بالمظاهر المادية المحسوسة المنتزعة من الواقع[٤]:

ومن أمثلة التشبيه في شعر الشكوى قول جرير[٥]:

إليك أشكو عض دهر مكسر   أبقى خدوداً كالحريق المشرر

فقد شبه الشاعر الدهر بالحيوان المفترس الذي يعض، وأفعال هذا الدهر تركته شبيهاً بحال الحريق المشرد.

---

(١) طه وادي، **ديوان رفاعة الطهطاوي**، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٩م، ص٧٠.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط١، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٩٨.

(٣) عبد الرزاق أبو زيد، **كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دراسة وتحليل**، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦، ص٩٣.

(٤) **ديوان رؤبة بن العجاج**، مصدر سابق، ص١٦.

(٥) **ديوان جرير**، مصدر سابق، ص٣٥٤.

ومن أمثلة التشبيه الرائعة جداً قول الراعي النميري[١]:

إنـــي وإيـــاك والشـــكوى التـــي قصـــرت خطـــوي ونـــأيك والوجـــد الـــذي أجـــد

كالمـــاء والظـــالع الصديـــــان يطلبـــــه هـــو الشـــفاء لـــه والـــري لـــو يـــــرد

فيشبه الشاعر حاله الشاكية وعاذلته والأمير تماماً كحال الرجل شديد العطش بقوله: فأنـــا ذاك الصديان وأنت الماء الذي إن وصلته كان لي شفاءً ورياً... وهذا التشـــبيه يعمـــق صـــورة الإحساس بالألم والشكوى التي حملها الشاعر وعبر عنها بصورة غاية في الحسن والبراعة.

ويأتي الشاعر بصور من الطبيعة لا يقصدها بل يتوسل بها لبيان المعنى الذي يريد أن يصوره.

ويرى قدامة بن جعفر أنه من المستحسن أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت شعري واحـــد وألفاظ يسيرة[٢].

ويوظف الشاعر صوره التشبيهية في خدمة غرض الشكوى بكثرة فيصوغ معظم صـــوره التشبيهية من الواقع المادي المحسوس ليصيب هدفه، ويكتب لصوره الذيوع ولشـــعره الشـــهرة، ويستمد عنصر المشابهة في الغالب من الحيوان كالذئب. انظر قول كعب بن معدن الأشقري[٣]:

إن كنـــت تحفـــظ مـــا يليـــــك فإنمـــــا عمـــال أرضـــك فـــي البـــــلاد ذئـــــاب

ولا يعد الباحث الصورة التشبيهية من قبل الزينة العارضة أو هدفاً للصنعة المتكلفة، بـــل بدت غالباً في محاكاتها أجمل من الأصل بطرافتها فأقنعت وأمتعت وكشفت عن وشائج القرابـــة بين مظاهر الكون التي بدت وكأنها متباعدة[٤].

ومثلما قامت بعض الصور على التشبيه فقد قامت كذلك على الاستعارة فالشاعر يســـتخدم ألفاظه، ويدرك العلاقة بين أشياء مختلفة لم تكن بينها علاقة من قبل، فيتعدى العلاقات المألوفـــة لينسج علاقات مبتكرة، وتعتبر الاستعارة من العملية الشعرية "كالنحو من اللغة، فكمـــا اطـــردت اللغة قبل أن يعرف متكلموها القواعد، ويفطنوا إلى وجودها كذلك صدر الشعراء عن الاســـتعارة بنظرتهم دون معرفة نظرية ولا وعي تحليلي لطرق استعمالها؛ ولهذا جاءت معظم الاســـتعارات القديمة صادقة لأن ملكة الشاعر انتزعتها من طبائع الأشياء، أو على الأصح لأن الأشياء أملتها

---

(١) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٥٩.

(٢) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، مصدر سابق، ص٣٧.

(٣) **ديوان كعب بن الأشقر**، مصدر سابق، ص١٥.

(٤) محمد غازي مقابلة، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، مرجع سابق، ص٨٥.

على الشعراء دون أن يصنعوا هم شيئاً"[١].

والمعنى الذي تصوغه الاستعارة لا يعد مرآة للواقع أو ترجمة له "فنحن لسنا إزاء معنى حقيقي، ومعنى مجازي هو ترجمة للأول بل نحن في الحقيقة إزاء معنى جديد نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة من قبيل النقد أو التعليق أو الادعاء، وإنما تصبح عبارة عن فكرتين لشيئين مختلفين ويكون معناها محصلة لتفاعلهما"[٢].

وللاستعارة قيمة بيانية في أنها تلمس ما يحيط بالطرف الغائب من صفات تزيد الصورة جمالاً، ويعد غياب الطرف الأول والاستغناء عن أحد طرفي التشبيه من أهم "الأسباب التي تضفي على الاستعارة عمقاً وبعداً نفسياً وفنياً، وذلك لأن سقوط الطرف الأول حرر النفس من بطئ الأسلوب المنطقي، وحرر أيضاً المعادلة من وضوح الأسلوب النثري، وكساها بقليلٍ أو كثيرٍ من الوهم والغموض المتولدين من الاتصال المباشر بين النفس والأشياء"[٣].

وموضوع الشعر وطبيعته، وروح الفنان وأصالته تفرضان نفسيهما على طبيعة الاستعارة التي لم تتخط الحواجز المنطقية فينشر الحياة بدبيبها، والحركة بقوتها في الجماد، ويشكل صوراً قوامها الإنسان والحيوان وغيرهما من عناصر الطبيعة تنطق بالحياة والحركة.فيضفي الشاعر على الأمور المعنوية صفات بشرية.

والكناية من العناصر البارزة التي توسل بها الشاعر في تشكيل صورته وتقف الكناية مع التشبيه والاستعارة جنباً إلى جنب.

وتنوعت صور الكناية في شعر الشكوى، وعبر بها عن مختلف معاني الشعر فقد كنّوا بها عن اللون وعن الصوت، وعن الصفة، والموصوف، والنسبة، وامتزجت مع عناصر التشكيل الأخرى، من تشبيه، واستعارة لتسمو بالصورة وترقى بها في عالم الفن والتصوير.

اللغة والأسلوب:

تعد اللغة من أهم عناصر بناء العمل الأدبي، والمادة الأولية لتشكيله: "اللغة أداة الأدب، ومحققة لكل سماته الموسيقية والدلالية والرمزية، تحافظ من حيث البناء والدلالة على معنى اللّفظة القاموسي،

---

(١) محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث في الأدب واللغة** مترجم عن الأستاذين لانسو، وماييه، دار مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٩.

(٢) جابر عصفور، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧٢.

(٣) إيليا حاوي، **العقل في الشعر بين التشبيه والاستعارة والرمز**، مجلة الآداب البيروتية، ديسمبر ١٩٦٢، ص١٥٤.

مع الحرص على وضوح نبرة الجرس الصوتي لها"[١]، ويعرفها (ويلك): "واللغة هي بالحرف الواحد، مادة الأديب، ويمكن القول إن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء من لغة معينة"[٢].

واللغة هي مجموعة الألفاظ التي تعد المواد التي تبنى منها القصيدة الشعرية، والشاعر بهذه المادة (اللفظة) يستطيع أن يخرج فناً قوياً ومبدعاً إذا أحسن التوسل بها في تعبيره وتصويره "فاللفظ بما يثيره من أشكال يمنح القصيدة الصورة، وبما فيه من جرس يهبها الإيقاع"[٣]، و"الشعر لا ينسج من الأفكار بل من الكلمات ومعنى القصيدة يثيره بناء الكلمة بأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان وذلك التكثيف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصيلة، إنما هو حصيلة لبناء الأصوات"[٤]، فالشعر تجربة وجدانية عميقة ترتبط باللغة بوشائج متينة[٥].

ويتضح التوافق بين اللغة والموضوع بشكل جلي في شعر الشكوى؛ فالشكوى هم الشاعر وعلى قدر هذا الهم تأتي الألفاظ قوية؛ فالشاعر يتفنن في ذكر مفاتن القوة في ناقته التي ستوصله إلى المشتكى إليه فالناقة عنده (حرفاء دفواء ثبجاء مقّاء)[٦] فهي قوية الشكيمة لأنها تحمل أتعاباً وهموماً وشكاوى ثقيلة فكان التوافق بين اللفظ والمعنى.

ومن مظاهر مراعاة الكلام لمقتضى الحال في شعر الشكوى ما تتصف به أشعارهم من سهولة ويسر، خاصةً عندما يتوجهون بالخطاب إلى الخليفة فلا يبذل دارس شعرهم جهداً في معرفة دلالات ألفاظهم ومقاصدهم فيها[٧].

ومن خصائص أسلوبهم أيضاً التنويع في استخدام الخبر والإنشاء، فقد راوحوا بين الأسلوبين وفقاً لمتطلبات القصيدة، فلكل غرض شعري أسلوب خاص يحقق النجاح أكثر من غيره، لهذا راوحوا في الاستخدام بين الخبر والإنشاء.

فالأسلوب الإنشائي بما فيه من حفز وإثارة للقارئ للمتابعة والاستمرارية في قراءة القصيدة كان أكثر وضوحاً وغزارة في أشعار الشكوى[٨].

---

(١) طه وادي، **شعر ناجي، الموقف والأداة**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧، ص٢٥.

(٢) رينيه ويلك واوستن واري، **نظرية الأدب**، مرجع سابق، ص١٧٩.

(٣) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، مرجع سابق، ص٢٤٢.

(٤) ارشيبالد مكليش، **الشعر والتجربة**، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، مراجعة: توفيق صايغ، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٣، ص٢٣.

(٥) خليل إبراهيم عطية، **التركيب اللغوي لشعر السياب**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٦٨، ص١٤.

(٦) الدفواء: النجيبة طويلة العنق. الثبجاء: الناقة عظيمة الوسط. المقاء: الناقة عارية اللحم من الفخذ.

(٧) خليل إبراهيم عطية، مرجع سابق، ص٨٨.

(٨) خليل إبراهيم عطية، المرجع السابق، ص٧٩.

ومع هذا لم يغفل الشّعراء الأسلوب الخبري في قصائدهم، أما لغة الشعراء فجاءت ثرية متآلفة غير نابية وتبرهن على قدرة الشاعر في معرفة المكان الملائم للفظ، وخلا شعرهم من الإسفاف فكانت لغتهم صوت أنفسهم ودليل فنهم، ولم تكن مطلباً في ذاتها تأسر الشاعر ويسعى إليها بل أسرها بمقدرته الفنية وسعت هي إليه وأسلمته مفاتيح كنوزها الفنية فكانت أداته ووسيلته الفنية في تشكيل صورته، ووهب الشاعر الصناعة الشعرية وسائل فنية، وأنفق فيها الكثير من جهده ووقته لكي يحقق له البناء الشعري المحكم مستفيداً من أساليب اللغة الكثيرة.

الموسيقى:

الموسيقى حد الشعر، وسمته الفارقة، يستخدمها الشاعر ليناسب بينها وبين المواقف المصورة، ويلائم بين الإيقاع وحالاته الفنية الخاصة، وبين القافية وألفاظ البيت ودلالاتها، وتعد الموسيقا ركناً هاماً لفهم النص الشعري والحكم على جودته وقبوله، فالمعاني الشعرية متداولة بين الشعراء يعرفها العربي والعجمي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج وجنس من التصوير[١]، وفي وزن الشعر إيقاع يطرب الفهم لصوابه ويرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه[٢].

والموسيقى أبرز مظاهر الشعر "فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاماً موسيقياً تنفعل لموسيقاه النفوس وتتأثر بها القلوب"[٣].

وترتبط الموسيقا بالشعر ارتباطاً وثيقاً، فهما يتصلان ببعضهما اتصال الروح بالجسد"[٤]. إن الوزن والقافية يمثلان الموسيقا الخارجية للشعر أما الموسيقا الداخلية فتبدأ بالحرف كوحدة صوتية مروراً باللفظة المفردة، حتى تصل إلى البيت الذي يقع في إطار القصيدة ككل، وفي فلك موسيقاها الخارجية من وزن وقافية "وليس الوزن والقافية كل موسيقى الشعر، فللشعر ألوان من الموسيقى تعرض في حشوه وشأن موسيقى (الإطار) تحتضن موسيقى الحشو في الشعر، شأن النغمة الواحدة تؤلف فيها الألحان المختلفة في موسيقى الغناء، فإذا كان في الشعر عنصر فار،

---

(١) الجاحظ، **الحيوان**، مصدر سابق، ج٣، ص١٣١.

(٢) أبو الحسن محمد بن أحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، **عيار الشّعر**، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠، ص٢١.

(٣) إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ط٥، مكتبة الأنجلو، مصر، ١٩٧٨، ص١٧.

(٤) رجاء عيد، **التجديد الموسيقي في الشعر العربي، دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد في الشعر العربي**، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص١٢.

لا بد من الانطلاق والرجوع إليه، فإنما هو عنصر الموسيقى يكون ذلك بالاحتكام إليه خاصة حيث تتعطل قاعدة نحوية أو تضعف بنية صرفية أو تغمض وجهة دلالية"[١].

وهذه الدراسة ستتناول موسيقى شعر الشكوى الخارجية (الإطار)، والداخلية (موسيقا الحشو).

الموسيقى الخارجية:

أ- الأوزان

يقول الدكتور إبراهيم أنيس[٢]: "إن البحر الطويل قد نظم منه ما يقرب من ثلث الشعر العربي وأنه الوزن الذي كان القدماء يؤثرنه على غيره ويتخذونه ميزاناً لأشعارهم ولا سيما في الأغراض الجدية الجليلة الشأن، وهو لكثرة مقاطعه يتناسب وجلال مواقف المفاخرة والمهاجاة والمناظرة".

ويضيف الدكتور أنيس إن الكامل والبسيط يحل بالمرتبة الثانية في الشيوع وربما جاء بعدهما كل من الوافر والخفيف وتلك هي البحور الخمسة التي ظلت في كل العصور موفورة الحظ يطرقها كل الشعراء ويكثرون النظم فيها أما المتقارب والرمل و السريع فتلك بحور تذبذبت بين القلة والكثرة يألفها شاعر ويكاد يهملها آخر وقد حافظت في شعر ما يسمى بعصور الاحتجاج على نسب متقاربة لا تسمح بأن يفصل أحدهما الآخر ويمكننا – مع قليل من التسامح – أن نعدها من الأوزان العربية المألوفة التي كانت الآذان تستريح إليها[٣].

ورغم أن ظاهرة الشكوى لم تبتعد كثيراً عما ذهب إليه هذا التقسيم فجاءت معظم أوزانها متناسقة معه. لأن ظاهرة الشكوى لم تكن غرضاً شعرياً مستقلاً فقد وجدت الشكوى في كل أوزان الأشعار.

إن الطويل أعدل مزاجاً، فيه قوة وعنف، ويصلح لرقيق الكلام، وعنصر الحنين، والتحسر على الماضي والبكاء على الأوطان المسلوبة[٤]. وبذلك يكون أقرب للشكوى.

وقد اتفق ذلك الرأي مع الفلسفة العروضية لطبيعة الأوزان مع ما ذكره صاحب منهاج البلغاء "فالطويل تجد فيه أبداً بهاء" وقوة، وتجد للبسيط بساطة"[٥].

---

(١) محمد الهادي الطرابلسي، **خصائص الأسلوب في الشوقيات**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١، ص١٩.

(٢) إبراهيم أنيس، مرجع سابق، ص١٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٩٢.

(٤) عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠، ص٥٥.

(٥) حازم القرطاجني، **المنهاج**، مصدر سابق، ص٢٦٥.

ويأتي الكامل عنده في الدرجة الثانية فهذا البحر "أصلح البحور لإبراز العواطف البسيطة غير المعقدة كالغضب والفرح والفخر"(١).

وعندما يستخدم الشاعر البحور كثيرة المقاطع كالطويل، والكامل والبسيط، فهذا يظهر فنيته، ويوضح عبقريته، ويمكنه من الصنعة الشعرية وحسن صياغتها، وادراكهم الدور الموسيقي ونوع المادة التصويرية المصاغة فيها، وأكثر الشعراء نظمهم على هذه البحور لقدرتها على احتمال الشكوى أكثر من غيرها إذ إن لكل بحر سعته" ... فأعلاها درجة في ذلك الطويل والبسيط ويتلوهما الوافر والكامل"(٢).

ويأتي الوافر بعد الكامل في المرتبة، ويعد من جنس الكامل ومن دائرته فقد ساعدته رنته القوية على ترشيحه لأداء الصورة العاطفية الثائرة والشاكية.

والمتقارب بعد الوافر في المرتبة، حيث تعد نغماته من أيسر النغمات حيث تتكرر فيه النغمة الواحدة في انسياب، واستخدمه الشعراء لما فيه من جرس الألفاظ، وأعانهم في أن يسردوا الأحداث في نسقٍ مترابط.

ويمكن أن نخلص إلى أن شعراء الشكوى التزموا بالأوزان الشائعة، ولم يخرجوا عنها، وكانوا موفقين في اختيارهم.

ب- القافية:

القافية من العناصر الأولى في إيقاع الشعر، وضرورية لاستقامة الشعر، وقد تم اكتشافها ومعرفتها قبل التوصل إلى معرفة الوزن، وهذا الترتيب يتفق مع الطبيعة، لأن إدراك التماثل بين كلمتين في مقطع أول أو أخير أيسر كثيراً من إدراك التماثل في النسب بين مجموعتين من المقاطع..."(٣).

"ولا يعد الشعر شعراً بدونها خاصة في نظر أصحاب الشعر العمودي، لأن غيابها يبعده عن دوائر الشعر العربي ويلحقه بدوائر النثر بالرغم من اعتماده الشديد على قوة الخيال، وروعة التصوير وإثارة العواطف والمشاعر، فذلك كله لا يصنع منه شعراً" لأن النثر كفيل بأن يستوعب كل هذا فضلاً عن أن تكون له قوافٍ موفقة وأنغام منوعة بفضل السجع والمساواة

---

(١) شكري عياد، **موسيقى الشعر العربي**، مرجع سابق، ص٢٥٨.

(٢) حازم القرطاجني، **المنهاج**، مصدر سابق، ص٢٦٨.

(٣) شكري عيّاد، **موسيقى الشعر**، مرجع سابق، ص١٠٢.

وغيرهما من ضوابط النثر الجمالية"[١].

وللعلماء تعاريف متعددة للقافية، فالأخفش الأوسط ذهب إلى أن القافية هي: حرف الروي[٢]، وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة، وإليه تنسب، وهو الرأي الدارج في الوقت الحاضر[٣]، والقافية ليست إلا: "عدة أصوات تتكرر في أواخر الأسطر أو الأبيات من القصيدة، وتكررها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة... الروي صوت يراعي تكرره، ويشترك في كل قوافي القصيدة، ويسميه أهل العروض بالروي، فلا يكون الشعر مقفى إلا بأن يشتمل على ذلك الصوت المتكرر في أواخر الأبيات".

ومن التعريفات الحديثة للقافية: "هي المقاطع الصوتية التي تكون في أواخر أبيات القصيدة، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت"[٤].

ولا يستطيع أحد إنكار الصلة الوثيقة بين القافية وموسيقى الشعر، فهي فاصلة موسيقية تنتهي عندها موجة النغم في البيت، وينتهي عندها سيل الإيقاع ثم يبدأ البيت من جديد كالموجة تصل إلى ذروتها وتنتهي لتعود من جديد، وهكذا، وبهذا تكون القافية ختام السيل النغمي وعندها تتوقف المعاني مع أمواج النغم المتوافقة في التفصيلات فيكون لهذه الوقفة القصيرة أثرها في تثبيت معنى البيت وينشأ عن ترديد القوافي لذة موسيقية خاصة، فالقافية تكسب الكلام إيحاءً خاصاً وظلالاً موسيقية لا تتهيأ للكلام المنثور حيث يتهيأ الجو النفسي لتقبل الألفاظ وتصور المعاني، وتضيف القافية بموسيقاها قوة إلى الموسيقى التي يحدثها الوزن للصورة[٥].

ولم تكن القوافي عند شعراء الشكوى مقيدة بل جاءت مطلقة في معظمها. إلا أنه وردت قوافي أكثر رويها الكسر. ولعل السبب في غلبة الكسر على حروف الروي يعود إلى قوة هذه الحركة، والتأثير الكبير على السامعين، حيث تساعد الشاعر على تفريغ انفعالاته وأحاسيسه التي تنتابه فيحس في إخراجه الحرف الأخير بأنه يخرج هذه الانفعالات. وكذلك مع الألف الممدودة. انظر قول مالك ابن الريب[٦]:

---

(١) النعمان القاضي، **شعر التفعيلة والتراث**، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧، ص١١.

(٢) عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب**، مرجع سابق، ج١، ص٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢.

(٤) عبد العزيز عتيق، **علم العروض والقافية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨، ص١٣٤.

(٥) علي إبراهيم أبو زيد، **الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص٣٨٢.

(٦) عبد المعين ملوحي، **أشعار اللصوص وأخبارهم**، ديوان مالك ابن الريب، مرجع سابق، ص٢٦٤.

فلـولا بنـو مـروان كـان ابـن يوسـف كمـا كـان عبـداً مـن عبيـد إيـاد

زمـان هـو العبـد المقـر بذلـةٍ يـراوح صبيـان القـرى ويغـادي

لا يعدم النقاد العرب الدراسات الجادة للموسيقى الداخلية فقد وقفوا عند الحروف والألفاظ والجمل ودرسوها دراسة صوتية جمالية، وهذا يساعد على دراسة هذا القسم[١].

ويمكن أن تدرس الموسيقى الداخلية، في شعر الشكوى ضمن المحاور التالية: (التكرار، الجناس، رد العجز على الصدر، التصريع):

الموسيقى الداخلية:

أ- التكرار

إذا بدئ الكلام عن موسيقى الحروف فيمكن القول "إن تردد بعض الحروف أو الكلمات يكسب الشعر لوناً من الموسيقى تستريح إليه الآذان وتقبل عليه، ومثل هذا مثل الموسيقى حيث تردد فيها أنغام بعينها في مواضع خاصة من اللحن فيزيدها هذا التردد جمالاً وحسناً، فليس تكرار الحروف قبيحاً إلا حين يبالغ فيه وحين يقع في مواضع من الكلمات يجعل النطق بها عسيراً، فالمهارة – هنا – في حسن توزيع الحرف حين يتكرر كما يوزع الموسيقي الماهر النغمات في نوتته"[٢].

وقد تحدث القدماء عن حروف موسيقية لها جرس ونغم وعذوبة حثوا الشعراء على استخدامها، وحروف أخرى راحوا يحذرون الشعراء من بناء قصائدهم عليها لأن مجال الكلام يضيق بها "اعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يتجنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف (كالثاء، والذال، والخاء، والشين، والصاد، والطاء، والظاء، والغين)، فإن في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها، فإن كلفت أيها الشاعر أن تنظم شيئاً على هذه الحروف، فقل هذه الحروف مقائل الفصاحة، وعذري واضح في تركها، فإن واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظاً تعذب في الفم وتلذ في السمع والذي هو بهذه الصفة منها، فإنما هو قليل جداً، ولا يصاغ منه إلا مقاطع أبيات من الشعر، وأما القصائد المقصدة فلا يصاغ منه، وإن صيغت جاء أكثرها بشعاً كريهاً على أن هذه الحروف متفاوتة في كراهة الاستعمال، وأشدها كراهية أربعة أحرف وهي: الخاء والصاد والظاء والغين، وأما الثاء والذال والشين

---

(١) محمد غازي مقابلة، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، مرجع سابق، ص١٠٦.

(٢) إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر العربي**، مرجع سابق، ص٤١.

والطاء فإن الأمر فيهن أقرب حالاً"(١).

ومثلما اعتنى الشعراء بحروفهم، فعلوا ذلك بألفاظهم، فلا نكاد نقرأ بيتاً من شعرهم إلا ونجد فيه نوعاً من أنواع البديع التي ستعرض فيما بعد، حيث تتشابه الألفاظ في حروفها، أو وزنها، أو فيهما، مما يعطي اللفظة نغماً موسيقياً مؤثراً.

ب- الطباق:

حين حاول ابن المعتز تعريف الطباق، ذكر تعريف الخليل الذي قال فيه: "يقال طابقت بين الشيئين: إذا جمعتهما على حذو واحد وكذلك قال أبو سعيد، فالقائل لصاحبه: أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان، قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب"(٢).

ويتوسع القاضي الجرجاني في تعريف المطابقة فيذكر المعنى الذي ذكره ابن المعتز، ويضيف إليه جنساً آخر تكون المطابقة فيه بالنفي، فكلمة (لا أعلم) وكلمة (أجهل) بينهما مطابقة"(٣).

وسمى قدامة المطابقة بالتكافؤ، ويعرفه بقوله: "هو أن يضيف الشاعر شيئاً يذمه ويتكلم فيه – أي معنى كان – فيأتي بمعنيين متكافئين، والذي أريد بقولي متكافئين في هذا الموضع أي متقابلين أما من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل، ويمثل بقوله "حلو" و"مر" فبينهما تكافؤ"(٤).

ويستخدم الشعراء الطباق في أشعارهم طلباً للموازنة بين المعاني، حيث يطلبه الشاعر "من أجل أن يوازن بين معنى سابق وآخر لاحق، أو يقع موقعه، كما تقع الأيدي مكان الأرجل في مشي ذوات الأربع"(٥).

ومن أمثلة الطباق في شعر الشكوى قول الراعي النميري(٦):

---

(١) ابن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٨٠، ج١، ص١٣٢.

(٢) ابن المعتز، **البديع**، مصدر سابق، ص٣٦.

(٣) القاضي الجرجاني، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، ط٣، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ص٤٤.

(٤) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، مصدر سابق، ص١٤٧.

(٥) عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مرجع سابق، ص٦٦٠.

(٦) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٢٣٣.

ولا أتيتُ نُجِيدَةَ ابنَ عُويمرِ أبغي الهُدى فيزيدَني تضليلاً

وقد طابق الشاعر بين الهدى والتضليل.

ومن أمثلة الطباق أيضاً في شعر الشكوى، قول يزيد ابن مفرغ[١]:

أتغضبُ أن يقالَ أبوكَ عفٌّ وتَرضى أن يُقالَ أبوكَ زانِ

فقد طابق الشاعر بين عفٍ وزانٍ، ومن أمثلة الطباق أيضاً في شعر الشكوى قول ابن همام السلولي[٢]:

إذا ما قلت أقصر عن مداه تمادى في ضلالته وزادا

فقد طابق الشاعر بين كلمتي أقصر وزاد.

ومن أمثلة الطباق قول ابن همام السلولي[٣]:

وقيسُ كندةَ قَدْ طالت إمارتَه بسُراةِ الأرضِ بينَ السهلِ والجبلِ

فقد طابق الشاعر بين السهل والجبل في هذا البيت.

ج- الجناس:

أطلق ابن المعتز عليه اسم التجنيس، وعرفه بقوله: "وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها..."[٤]، ويعرفه قدامة بقول "وأما المجانسة أن تكون المعاني مشتركة في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق"[٥].

ووجدت أقسام عديدة للجناس أهمها: الجناس التام الذي يعرفه ابن قدامة بالطباق[٦]، وهو أن تجانس كلمة، كلمة أخرى في تأليف حروفها دون معناها[٧]، والجناس الناقص: وهو على

---

(١) الطبري، **ديوان الطبري**، مصدر سابق، ج٣، ص٣٦٧.

(٢) **ديوان همام السلولي**، مصدر سابق، ص٢٢٣.

(٣) **ديوان بن همام السلولي**، مصدر سابق، ص٩٥.

(٤) ابن المعتز، **البديع**، مصدر سابق، ص٥٥.

(٥) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، مصدر سابق، ص١٦٣.

(٦) قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، المصدر السابق، ص١٦٢.

(٧) ابن المعتز، **البديع**، مصدر سابق، ص٢٥.

ضروب كثيرة منها: أن تزيد الحروف وتنقص[(١)]، ويسميه ابن رشيق المضارعة[(٢)].

وهذه التسميات المتعددة للجناس هي في حقيقتها نغمات متعددة على آلة واحدة تتفاوت موسيقاها في الدرجة وحسب.

واستغل الشعراء الجناس بوصفه لوناً من ألوان البديع في تشكيل صورهم، فأكثروا منه، لكن الجناس لم يستعبد الشاعر لخدمته، أو يأسر لفظه، ويكب معناه، بل ساعده على تحقيق لون طريف من ألوان التنغيم الموسيقي المحبب الذي يزيل التوتر، ويفك أسر الجمود، ويبعث على الفكر، ويبث الحركة في التصوير.

ومن أمثلة الجناس في شعر الشكوى قول ابن همام[(٣)]:

وقد جرَّبَ الناسُ ابنَ الزبيرَ فلاقوا مِن آلِ الزُّبَير الزبيرا

فقد جانس بين الزبير (الاسم) والزبير الشدة والغلظة في آلية تعمق صورة الشكوى من الحاكم.

ومن الأمثلة على الجناس قول الراعي النميري[(٤)]:

إني وإياك والشكوى التي قصرت خطوي ونأيك والوجد الذي أجد

فجانس الشاعر بين كلمتي الوجد وأجد، ومثال آخر على الجناس غير التام قول ابن همام السلولي[(٥)].

وتعزل تابعاً أبداً هواه يخرب من بلادته البلادا

وجانس الشاعر هنا بين كلمتي (بلادته) و(البلادا).

وأدى الشاعر بالجناس الدور المعد له حين راعى به وزن الكلمات، وتكرار حروفها، مما يطلق عليه بعض النقاد الجناس السجعي "الذي يقرب الصورة الموصوفة على سبيل محاكاة صورتها"[(٦)].

---

(١) الجرجاني، **الوساطة**، مصدر سابق، ص٤٣.

(٢) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص٥٥٣.

(٣) ديوان بن همام، مصدر سابق، ص٣٨.

(٤) ديوان الراعي النميري، المصدر سابق، ص٥٩.

(٥) ديوان ابن همام السلولي، مصدر سابق، ص١٠٩.

(٦) عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب**، مرجع سابق، ص٦٦١.

ولم يتكلف الشعراء في استخدام الجناس، وإنما استخدموه من غير تعب أو استجداء فكان من الحلى التي يروق منها القليل، ولم يستخدموه عبثاً لفظياً، بل حاوروا بالمعاني وأظهروا مهارة في استخدام مفردات اللغة المتقاربة.

د- رد العجز على الصدر:

وهو ما وافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة في نصفه، أو ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول، أو ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه، ويسميه ابن رشيق (التصدير) حيث يعرفه ذاكراً وظيفته وهو أن يرد إعجاز الكلام على صدوره، فيدل على الصبغة ويكسب البيت الذي يكون فيه الخفة ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائية وطلاوة"[١].

ويقسمه ابن المعتز إلى ثلاثة أقسام: الأول ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة في نصفه الأول، والثاني: أن يوافق آخر كلمة منه أول كلمة في نصفه الأول، والثالث: أن يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه[٢].

ويعطي هذا النوع من البديع للبيت إيقاعاً موسيقياً، ويربطه برباط موسيقي "وحين يلتقي طرفا البيت في صدره وعجزه فإن هذا معناه أن البيت سيصبح حلقة مقفلة على ذاتها، وتكون القصيدة كأنها مجموعة من الحلقات المنفصلة المتجاورة في خيطٍ واحد هو القافية، ومعنى هذا أن البيت من الشعر قد أخذ اعتباراً خاصاً هو أنه وحدة مكتفية بذاتها كالحلقة المتصلة الطرفين تماماً، والبيت الذي يستطيع أن ينعطف على نفسه ويستقل بالإفادة خير من البيت الذي يعتمد على غيره، لذلك انصرفت عناية العرب إلى البيت المفرد دون وحدة القصيدة ككل"[٣].

ومن أمثلة رد العجز على الصدر في شعر الشكوى قول ابن همام السلولي[٤]:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ ... فقد خرب السواد فلا سواد

ومن أمثلة رد العجز على الصدر في شعر الشكوى قول جرير[٥]:

أشكو إليك فاشكني ذريةً ... لا يشبعون وأمهم لا تشبع

حيث وافق بين آخر البيت (تشبع) وبعض ما فيه (يشبعون).

---

(١) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص٥٧١.

(٢) ابن المعتز، **البديع**، مصدر سابق، ص٤٧، وما بعدها.

(٣) عز الدين إسماعيل، **الأسس الجمالية**، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٤.

(٤) ديوان بن همام السلولي، مصدر سابق، ص١٠٩.

(٥) ديوان جرير، مصدر سابق، ص٣٥.

ومن أمثلة رد العجز على الصدر في شعر الشكوى قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[١]:

عجبت لها إذ كُفّنتْ وهي حية ... ألا إن هذا الخطب من أعجب العجب

ردَّ كلمة (العجب) إلى (أعجب) وإلى أول كلمة في البيت (عجبت).

ومن أمثلته أيضاً قول بن قيس الرقيات[٢]:

أيُّها المُشتهي فناءَ قُريشٍ ... بيدِ اللهِ عمرُهَا والفناءُ

ومن أمثلته أيضاً قول عبد الله بن الزبير الأسدي[٣]:

أتطمعُ بالخُلودِ إذا هَلِكنا ... وليسَ لنَا ولا لَكَ مِنْ خُلُودِ

حيث رد كلمة (خلود) إلى (الخلود) في الشطر الأول.

ومن أمثلته أيضاً قول الكميت بن زيد الأسدي[٤]:

أجاعَ اللهُ مَن أشْبَعْتُمُوهُ ... وأشبَعَ مَن بِجَوْرِكُم أُجِيْعَا

حيث ردَّ (أجيعا) إلى (أجاع).

هـ- التصريع:

يعرفه ابن رشيد بقوله: "فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه: تنقص بنقصانه، وتزيد بزيادته"[٥]، ويقول: "واشتق التصريع من مصراعي الباب، ولذلك قيل لنصف البيت: "مصراع" كأنه باب القصيدة ومدخلها... وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ليعلم أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منثور، ولذلك وقع في أول الشعر"[٦].

---

(١) الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٤٩٤-٤٩٥.

(٢) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص٨٨.

(٣) ديوان عبد الله بن الزبير الأسدي، مصدر سابق، ص٦٠.

(٤) ديوان الكميت، مصدر سابق، ص٦٢٤.

(٥) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٥.

(٦) ابن رشيق، **العمدة**، المرجع السابق، ج١، ص٣٢٦.

ويحسن التصريع في أول القصيدة – في مطلعها – حتى "يتاح لصوت الشاعر مركزان يتوقف عندهما في استهلال النشيد، وحتى تصفو الآذان لقرار النغم المكرر في قافية الموسيقى[١]"، ويمكن أن يعد التصريع في المطالع أثراً من آثار ارتباط الشعر بالغناء، فعندما يلجأ الشاعر إلى تكرار التصريع لأكثر من مرة داخل القصيدة الواحدة – وهذا جائز عند ابن رشيق[٢]، فكأنه يصرع ليجزء الإنشاد إلى مقاطع ويكون كل تصريع بداية إنشاد جديد.

والملاحظ على التصريع لدى شعراء الشكوى أنه لم يظهر فيه أثر للتعقيد والتكلف بل جلء طبيعياً قوياً متمكناً ليس غريباً عن نسج البيت، وتشكيل صور القصيدة ملتحماً معها، فزاد التصوير الفني موسيقاً، وعدد الألحان وأكثر من النغمات.

فمن أمثلة التصريع في مطالع قصائد الشكوى قول رؤبة بن العجاج[٣]:

وعض بي إذا عضت المغارث ... عدلان من دين ورداء ثالث

إلا تضع ديني فديني لابث ... وأنا مجهود النياط لاهث

ولرؤبة أيضاً مقطوعة كاملة مصرعة الأبيات[٤]:

إليك أشكو عض دهرٍ مكسر ... أبقى خدوداً كالحريق المشرر

أرسل فاستدعى بأمر منكر ... بلوى وحشراً قبل يوم المحشر

ومثل آخر على التصريع في شعر الشكوى على لسان الراعي النميري[٥]:

ما بال دفك بالفراش مذيلا ... أقذىً بعينك أم أردت رحيلا

ومن أمثلة التصريع قول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[٦]:

أتى ركب بالأمر ذي النبأ العجب ... بقتل ابنة النعمان ذات الدين والحسب

ومن أمثلة التصريع في مطلع قصائد الشكوى قول بن قيس الرقيات[٧]:

---

(١) النعمان القاضي، **موسيقى الشعر**، مرجع سابق، ص٦.

(٢) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٣) **ديوان رؤبة ابن العجاج**، مصدر سابق، ص١٦.

(٤) ديوان رؤبة ابن العجاج، مصدر سابق، ص١٦.

(٥) ديوان النميري، مصدر سابق، ص٢١٣.

(٦) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق، ج٢، ص٤٩٤.

(٧) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص١٩٦.

اقفـرت بعـد عبـد شـمس كـداء فكـدي فـالركن فالبطحـاء

الخصائص الفنية في شعر الشكوى:

(١) لقد كان الشعراء يعبرون في شعرهم عن تجربةٍ حيـة عاشـوها، ويعـبرون عـن أحاسيس وانفعالات ومشاعر انتابتهم بترجمة صادقة مليئة بالحياة، ناطقـة بـالأحداث والملابسات، سواء كانت في موضوعاتها خاصة بهم وبحياتهم أم عامة تخص النـاس كافة، فمن ذلك قول بن همام السلولي(١):

لقـد ضـاعت رعيتكـم لديكـم	تـدرون الأرانـب غافلينـا
إذا مـا مـات كسـرى قـام كسـرى	نعـد ثلاثـة متتابعينـا
وكـل النـاس نحـن مبـايعوه	وإن شـئتم فعمكـم السـمينا
نثبـت ملككـم وإذا أردتـم	بنـا الصلعـاء قلنـا مخبتينـا
فيـا لـهفي لـو ان لنـا أنوفـاً	ولكـن لـن نعـود كمـا غنينـا
إذا لضربتـم حتـى تعـودوا	بمكـة تلحسـون بـها السـخينا
حشـينا الغيضـا حتـى لـو شـربنا	دمـاء بنـي أميـه مـا روينـا

(٢) لم يلتزم الشعراء تماماً بالمنهج الذي وصفه ابن قتيبة للقصيدة العربية بـل راوحـوا بأسلوبهم، فأحياناً يلتزمون بمنهج ابن قتيبة – وهذا قليل عندهم – وتارة لا يلـتزمون – وهذا موجود بكثرة، ويعود ذلك لقلة عدد الأبيات في المقطوعات القصـيرة، إذ إن تقسيم ابن قتيبة ينطبق على القصائد الطويلة نوعاً ما.

واهتم الشعراء بمقدمات قصائدهم لتيقنهم بأهمية المطلع في القصيدة، إذ إنه يشـد السـامع للانتباه والرغبة في معرفة ما بعد المطلع والاستمرار أو عدمه في السماع.

ولم يكن المطلع في قصائدهم، بعيد الارتباط عن موضوع القصيدة أو أبياتها أو ألفاظـها، وإنما كان ملائماً للموضوع والأبيات اللاحقة ملاءمة قوية، ويقدم الشعراء لـه بألفـاظ موحيـة مثيرة، بأسلوب يكفل أسر القلوب وشد الأسماع.

وكما اهتم الشعراء بمقدمات قصائدهم اهتموا بخواتمها، لأنها آخر ما يعلق بالنفس، فتحدث أثراً عميقاً لدى السامع، ونوع الشعراء في خواتم أشعارهم أحياناً ما كانوا ينهونها بحكمة.

---

(١) السلولي، ديوان، مصدر سابق، ص١٠٥.

وليست هذه الأمور كل ما يتعلق بنهايات أشعارهم، لكن هناك علاقة وثيقة بين الخاتمة والنص وجو النص، يفرغ الشاعر حمله النفسي في الخاتمة.

ويربط الشعراء بين الخاتمة والقصيدة بألفاظ ملائمة لألفاظ القصيدة، وببيت غير ناب عن أبيات القصيدة، لكن يكون لهذا البيت أثر أكبر من الأبيات الأخرى، إذ أنه يبقى عالقاً في النفس؛ لأنه آخر ما يطرق الأسماع.

ويمهد الشعراء للانتقال داخل القصيدة الواحدة من غرض لآخر وهذا ما يسمى بحسن التخلص، فأبدع الشعراء في تخلصهم، فأحياناً يتخلصون باستخدام حروف الجر، وتارة بالأفعال الناسخة، وأحياناً بالقسم، لكن لا يلمس القارئ انفصالاً في القصيدة بين غرض وآخر، بل يجد ترابطاً قوياً بين أجزاء النص الواحد، لأن الشاعر يضفي على النص بأغراضه المتعددة جواً واحداً.

ويوظف الشاعر الرحلة لخدمة قصيدته وإثرائها وللوصول إلى غرضه خاصة المدح، فهو يتوافق مع الشاعر الجاهلي بهذه الخاصية إذ استخدم الرحلة، وما فيها من مصاعب وآلام ليصل إلى الشكوى والألم يرفعها لمن يتوسم فيه خير الإجابة.

(٣) استخدم معظم الشعراء لغة سهلة، بعيدة عن التكلف والتعقيد، ولجأوا إلى اللغة القوية والجزلة أحياناً، وإلى اللغة السهلة البسيطة في بعض الأحيان، فكانوا يتخيرون لغرض الشكوى ألفاظاً بعيدة عن الغريب والحوشي.

وتميز أسلوبهم بقوة البناء، وحسن النظم، وجودة الصياغة، والرصانة، والنصاعة، والرونق الصافي، واستخدموا أساليب كثيرة في شعرهم منها الخبر والإنشاء، والاستفهام والنداء.

الباب الثالث

الفصل الثاني

بناء القصيدة

لقد قسم ابن قتيبة القصيدة العربية وحدد نهجها منذ زمن بعيد وما زال الكثير من النقدة يذكرون ما قاله ويسيرون على نهجه فيقول:

"سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، ضارباً فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح..."(١).

لقد قسم ابن قتيبة القصيدة إلى أربعة أقسام: أولها الوقوف على ديار المحبوبة والبكاء على الراحلين من أهلها، وثانيها النسيب وشكوى الوجد وألم الفراق، وثالثها: الرحلة المضنية، وشكوى النصب وسهر الليل، ورابعها: المديح.

ويتابع ابن قتيبة حديثة مفترضاً أن الشعراء المتتابعين تقيدوا بهذا النسق ولم يخرجوا عليه، فقال: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي"(٢).

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، مصدر سابق، ص٢٧-٢٨.

(٢) ابن قتيبة، المصدر السابق، ص٢٨.

وكلام ابن قتيبة محصور بقصيدة المديح وحدها وإن كان بعض الدارسين مثل (وهب رومية) يرى في هذه المقولة خللاً، والشعر العربي ليس مديحاً فحسب ولا يمكن إغفال أغراض الشعر الأخرى وإخراجها من الدائرة الشعرية[١].

ويمكن تسجيل ملاحظة أخرى على مقولته، فقصيدة المدح ليست مسرحاً لابتكارات الشعراء وتجاربهم في فن التسول والاستجداء، كما يراها ابن قتيبة لكنها كانت متصلة اتصالاً حميماً بحياة القوم ووجدانهم وتعبيراً أصيلاً – ككل فن – عن هؤلاء القوم في شؤون حياتهم، فيما ذهب إليه (وهب رومية)[٢]، والشاعر "يخطط عقلياً لتأثير الكلمة المؤلفة في الناس، فكأنه يهتم بذوات الآخرين أكثر من اهتمامه بذاته"، كما يراه الرباعي[٣].

ويكرر ابن رشيق ما قاله ابن قتيبة، فيقول: "والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الركائب وما تجشم من هول الليل وسهره وطول النهار وهجيره، وقلة الماء وغؤوره ثم يخرج إلى مدح المقصود ليوجب عليه حق القصد وذمام القاصد ويستحق منه المكافأة"[٤].

وتؤلف الأجزاء الأربعة التي ذكرها ابن قتيبة متحدة، فكراً شعورياً واحداً في إطار القصيدة الواحدة.

ولم يلتزم الشعراء بكل ما قاله النقّاد، فنوّعوا في مطالعهم وخرجوا على الأساليب القديمة، والذي قاله النقاد لم يكن واجب الاتباع إنما هو إيثار وتفضيل[٥].

والشعراء الأمويون من الشعراء الذين عاشوا في زمن يحترم الأصول التقليدية التي نقلت عن الشاعر الجاهلي بعد أن نمّاها وطورها واستقرت في بناء قصيدته من ناحية، وبين مفردات حضارية جديدة شملت الحياة الخاصة والعامة (للفرد والدولة) ومتغيرات فكرية كبرى طغت على المجتمع العربي آنذاك.

وما تعنى به هذه الدراسة، التعرف إلى بناء قصيدة الشكوى عند الشعراء الأمويين من حيث:

---

(١) محمد غازي مقابلة، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، مرجع سابق، ص١٠٠.

(٢) وهب رومية، **قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي**، مرجع سابق، ص١٧١.

(٣) عبد القادر الرباعي، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، مرجع سابق، ص١٧.

(٤) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص٣٩٩.

(٥) نجيب البهبيتي، **تاريخ الشعر حتى آخر القرن ٣هـ**، ط٤، دار الفكر، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠، ص٤٥٤.

١- مقدمات قصائدهم ٢- الرحلة ٣- حسن التخلص ٤- خواتم أشعارهم

مقدمات قصائدهم:

اهتم النقاد القدماء بمقدمة القصيدة، وجعلوها عنوان تفوق الشاعر على إخوانه الشعراء، وعابوا الشعراء الذين بدؤوا قصائدهم بدايات غير موفقة[١].

ويطالب النقاد الشعراء بضرورة تجويد ابتداء شعرهم فابن رشيق يقول: "إن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح، وأن الشعر قفل، أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستدل على غيره من أول وهلة وليتجنب "ألا" و"خليلي" و"قد" فلا يستكثر منها في ابتدائه"[٢].

لم تخلُ قصائد الشكوى من التقليد الشعري للقصيدة العربية كالوقوف على الأطلال وذكر الرحلة والراحلة والمقدمات الغزلية، تلك التي اعتادها الشعراء العرب منذ الجاهلية. فهذا الراعي النميري يستفتح قصيدته التي يرفعها لعبد الملك بن مروان بالتقليدية الشعرية الجاهلية[٣].

بانَ الأحبّةُ بالعهدِ الذي عهَدوا   فلا تمَالك عن أرضٍ لها عِمدوا

وأرادَ طرفُك في صحراءَ صاخبةٍ   فيها لقيلك والأظعانُ مُطّردُ

ثم يمضي الشاعر بوصف الرحلة وصعوبتها وما تجشمه من أهوال ويصف الرحلة والراحلة ويتفنن في ذكر صفات الراحلة التي حطت به في باب ممدوحه ليشكو له سوء أفعال عماله، والشاعر لم يلتفت لموضوع الشكوى – إلا – في أواخر الأبيات (٥٩-٦٣)[٤]، ففي هذه القصيدة لم يخرج الشاعر عن التقاليد الموروثة.

وفي مقدمة أخرى ليزيد بن مفرغ[٥] يشكو الشاعر وعلى الطريقة التقليدية فقد هاجته ذكرى دار سلمى بالخبت؛ فالشكوى من الأسر والأغلال جاءت جنباً إلى جنب مع إطلال المحبوبة:

دارُ سلمى بالخُبتِ ذو الإطلالِ   كيفَ نومُ الأسيرِ على الأغلالِ

---

(١) ابن رشيق، مصدر سابق، ج١، ص٣٩٤.

(٢) ابن رشيق،مصدر سابق، ج١، ص٣٨٩.

(٣) ديوان الراعي النميري، مصدر سابق، ص٥٤.

(٤) المصدر السابق، ص٦٥.

(٥) ديوان يزيد بن مفرغ، مصدر سابق، ص١٨٥.

وهذه مقدمة أخرى للشاعر عبد الله بن همام السلولي[١]:

أفــاطمُ قــد طــالَ التدلـــلِ والمطـــلِ   أجـدُّك لا صــرمٌ جلــيٌّ ولا وصــــلُ؟

وهي مقدمة غزلية منعزلة تماماً عن فحوى القصيدة ولكن يبدو مــن توظيــف الشـــاعر للفظه (المطل) وهي تأجيل الوفاء بالوعد أن الشاعر يشكو من مماطلة النعمان بن بشـــير أمــير الكوفة في صرف مستحقات الناس المالية، إذ يتبع هذا البيت ببيتٍ آخر مباشرة:

زيادتُنـــــا نُعمـــــانُ لا تحبســـــنّها   خَــفْ اللهَ فينــا والكتــابَ الــذي تتلـــو

ولكن قصائد الشكوى لم تكن كلها على هذا النحو، فقد ولَجَ بعض الشعراء إلى موضوع الشــكوى بشكلٍ مباشر دون تمهيد فهذا ابن قيس الرقيات يشكو من الأمويين بمرارةٍ وأســـى ودون تقديـــم ودون ذكرٍ لرحلة وراحلة ولكنه وقف على أطلال أبلاها حكم الأمويين وليست الأطلال التقليديـــة التي اعتادها الشعراء[٢]:

أقفــرتْ بعـــد عبــدِ شــمسٍ كِـــداءُ   فكُـــدي فــــالرّكنُ فالبطحـــــاءُ

ثم يمضي يعدد أسماء للمناطق التي تضررت بفعل نقل العاصمة السياسية للدولـــة مــن مكّة، وقريش إلى دمشق فالقبائل العربية الأخرى وما سببه ذلك من تفرّق لشمل قريـــش وتبــدد لقوتها وتنمّر الآخرين عليها.

وتفرض الشكوى على الشاعر أن يبدأ بها دون تمهيد ويبدو أن ذلك مرجعه إلى صعوبـــة الموقف وعسر الحال وضيق الشعراء بما يخالجهم فهذا عبد الله بن همام السلولي يستهل قصيدتـه بشكوى صريحةً دون تمهيد أو تلميح[٣].

لقد ضاعتْ رعيتكُم لديكم   تصيدونَ الأرانبَ غافلينا

وهذه المباشرة لم تراعِ المخاطب ويبدو أن للموقف السياسي للشاعر دوراً في ذلك وفـــي موقفٍ آخر لابن همام السلولي يباشر شكوته دون تقديم[٤].

ألا أبلغْ معاويةَ بن حربٍ   فقد خربَ السوادُ فلا سوادا

أرى العمال آفتنا علينا   بعاجل نفعهم ظلموا العباد

---

(١) **ديوان ابن همام السلولي**، مصدر سابق، ص٨٩.

(٢) **ديوان ابن قيس الرقيات**، مصدر سابق، ص٨٧.

(٣) **ديوان ابن همام السلولي**، مصدر سابق، ص١٠٥.

(٤) **ديوان ابن همام السلولي**، المصدر السابق، ص١٠٩.

ولابن همام السلولي قصيدة أخرى يباشر بها شكواه و لكنها موجهة هذه المرة لابن الزبير:

يابن الزبير أمير المؤمنين ألم يبلغك ما فعل العمال بالعمل

وأحياناً يقدم الشاعر لقصيدته بشيء من النصح تجنباً للاصطدام بالسلطة كابن همام يخاطب أمير المؤمنين[1]:

أبلغ أميرَ المؤمنيَن رسالةً مِنْ ناصحٍ لكَ لا يريدُ خِداعاً

فالشاعر يتقمص مسوح الواعظين تلطفاً ولكنه يصدم الخليفة بالحقائق التي يشكو منها:

بضعُ الفتاةِ بألفِ ألفٍ كاملٍ وتبيتُ سادات الجيوشِ جياعاً

وهذا مما يؤكد اهتمام الشاعر بمطلع قصيدته ومما يدلل على حكمة الشاعر إذ إن هذه القصيدة موجهة لابن الزبير المنافس التقليدي للأمويين ويذكره بقادة الجند الذين يقودون جيوشه فاتحين ومتحدين للأمويين.

وفي مقدمة أخرى تنم عن ذكاء وقاد يتلطف الشاعر بمقدمته إلى أعلى درجة مخاطباً الأمير باسمه ثم يخلع عليه لقب أمير المؤمنين ثم يوجه له سؤالاً يفترض الشاعر أن الأمير لم يطلع على إجابته محاولا تبرئة ساحة الأمير من سوء أفعال العمال[2]:

يابنَ الزبيرِ أميرَ المؤمنينَ ألمْ يبلغك ما فعلَ العُمال بالعملِ

ثم يجيب الشاعر في البيت الثاني وما بعده عن سوء ما فعل العمال ويرفع للخليفة صحيفة سوداء تضم قائمة عمالٍ أساءوا الأمانة.

والغالب في مقدمات أشعار اللصوص والصعاليك الولوج إلى الموضوع بشكل مباشر، فهذا جحدر بن معاوية يستهل قصيدته التي يشكو فيها من السجن[3]:

يا ربُّ ابغضُ بيتٍ أنتَ خالقِهِ بيت بكوفان مِنه أُشعِلتْ سُعُرُ

---

(١) ديوان ابن همام السلولي، مصدر سابق، ص١١٠.

(٢) ديوان ابن همام السلولي، المصدر السابق، ص٤٥.

(٣) ديوان جحدر بن معاوية، مصدر سابق، ص١٠٠.

فالمقطوعات الصغيرة ذات الأبيات القليلة لم تحفل بالمقدمات الطللية والتقليدية ولكنها ولجت إلى موضوعاتها بسرعة، ولم يغفل الشعراء بأن يضمنوا مقدماتهم بكلمات وعبارات توحي بمضمون ما يودون الإفصاح عنه؛ فبعد عبارات (أبغض بيتٍ) السابق يذكر السجن ويربطه بـأبغض مكان في الآخرة وهو أشبه ما يكون بمقارنةٍ بين البيوت السيئة (في الدنيا والآخرة).

فهذه المقدمات توحي بموضوع المقطوعات المتمثلة بالشكوى والتذمر.

ويقدم بعض الشعراء لقصائدهم ومقطوعاتهم بالدعاء إلى الله كأنما هم يئسوا أن ينصفوا من الناس فتوجهوا لله يجيرهم ويسمع شكواهم، انظر قول جحدر بن معاوية أيضاً:

يا ربَّ دوارٍ أنقذْ أهلَه عجلاً وانقضْ مرائرهُ مِنْ بعدِ إبرامِ

وفي موقع آخر يقول[١]:

إنّي دعوتُك يا إلهَ محمدٍ دعَوى فأولُها لي استغفارُ

الرحلة:

وصف الرحلة من الموضوعات التي تضمنتها القصيدة العربية القديمة، يصف الشاعر فيها رحلته ومصاعبها، ووسيلة النقل وما أصابها من ألم وهزال.

ولقد أعطى الدارسون الرحلة حقها من الدراسة، فالدكتور وهب رومية يرى أن الرحلة تقليد فني موروث له شهرته وانتشاره حيث يقول: "ويعرف قارئ الشعر الجاهلي أن رحلة الظعائن تنتشر في هذا الشعر انتشار الظعائن نفسها في الصحراء العربية كأنما أراد أولئك الشعراء أن يخلّدوا جوانب حياتهم جميعاً في السلم والحرب، وفي الخصب والجدب، وفي الإقامة والظعن، وفيما يتصل بكل ذلك أو يقترب منه، ويعرف أيضاً إنها تسير في سبل فنية مرسومة يعرفها الشعراء كطرق الظعائن نفسها التي يعرفها فارس الظعينة وحاديها فوق رمال الصحراء..."[٢].

ورحلة الظعائن في منهج الشعر القديم تسير وفق خطوات متتالية، وكأنها أحداث في قصة "وتبدأ قصة الرحلة كما يصورها الشعراء، بتحمل القوم وقد يقترب الشعراء من البداية خطوة أخرى أو خطوتين فيصفون رد الجمال من المرعى أو زمّها استعداداً للرحيل، انظر قول

---

(١) ديوان جحدر بن معاوية، مصدر سابق، ص٨٥.

(٢) وهبة الرومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، ص٢١.

الراعي النميري[١].

حثوا الجمال وقالوا إن مشربكم وادي المياه وإحساء به برد

ويتبع بعد ذلك وصف الشاعر لهذه الرحلة على شكل صورٍ فنية متتالية واصفاً كل ما يحدث من حلٍ وترحال وصفاً للأماكن والأشخاص وكل ما تضمنه المسير، ولقد اختار العربي (الناقة) دون غيرها لدواعي نفسية ترتبط بكونها الأمل في الخروج نحو الحياة الأفضل في غير هذا المكان بما يناسب حياة الترحال نحو مصادر العيش والخصب. ويرى كارل بروكلمان بأن البعير كان يلهب رغبة العربي في الصياغة والتصوير الفني كما ألهب البقر شعراء الهند في عصر الفيدا[٢].

وينظر الشاعر العربي للناقة بأنها "رمز الأمومة الخصبة التي تصدر عنها الحياة في أفراحها وأحزانها ومخاوفها وقلقها وأحلامها"[٣]. وهذا يتعارض مع ما جاء به الأستاذ سيد نوفل الذي علل تخصيص الشعراء للناقة بأنه ضرب من التقديس للحيوان[٤]. صحيح أنها تقديس لكن ليس للحيوان بقدر ما هي لفكرة الخصب والعطاء، ولقد خصصت الناقة للمكانة المرموقة التي يحتلها هذا الحيوان من نفس العربي الذي يقضي عمره متنقلاً فوق رمال الصحراء، إن العلاقة بين الشاعر والناقة ليست علاقة الرفقة في الرحلة فحسب بل يمكن أن نعد الناقة بمثابة شريك الشاعر في سروره وحزنه وشريكه في حالته النفسية ويمكن أن يعتبرها الشاعر رمزاً لموقفه من الحيوان[٥]. وفي قصائد الشكوى كانت الناقه وسيلة النجاة التي استقلها الشاعر للوصول إلى من ينصفه ويرفع الظلم عنه.

فهذا الراعي النميري وناقته في رحلة الشكوى من السعاة التي انطلق من خلالها شاكياً لعبد الملك بن مروان من ظلم السعاة[٦]:

وناقة من عتاق النوق ناجيه حرفاء تباعد منها الزور والعضد

ثبجاء دفواء مبني مرافقها على حصيرين في دفيهما جدد

مقاء مفتوقة الإبطين ماهرة بالسوم ناط يديها حارك سند

ينجو بها عنق صعل وتلحقها رجلاً أصك حدب فوقه لبد

---

(١) ديوان النميري، مصدر سابق، ص٦٣.

(٢) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربيّ**، مرجع سابق، ج١، ط٢، ص٥٩.

(٣) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربيّ**، المرجع السابق، ص٢١-٢٢.

(٤) سيد نوفل، **شعر الطبيعة في الأدب العربي**، ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٨٩، ص١٦٨.

(٥) محمد غازي مقابلة، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، مرجع سابق، ص١١٧.

(٦) ديوان النميري، مصدر سابق، ص٦٥.

تضحـــى إذا العيــس أدركنــــا نكائثـــــها خرقـــاء يعتادهـــا الطوفــــــان والـــــزؤد

كأنــــها حــــرة الخديــــن طاويــــــــة بعــــالج دونــــها الخـــلات والعقـــــد

ترمــــي الفجـــاج بكحلاويــــن لا تجـــدا ريــــح الدخـــان ولـــم يأخذهمــــا رمـــد

إن تفنن الشاعر في ذكر مناقب الناقة ووصفها الدقيق ينم عن علاقة غـــير عاديـــة بيـــن الشاعر والناقة والشاعر في قصيدة الشكوى تكون الناقة أكثر قرباً منه والتصاقاً به، إذ إنها عمـــا قريب ستنقل أوجاعه وشكواه إلى من يراه أملاً في الخلاص.

والرحلة شاقة مضنية وبعيدة ومجهدة للشاعر والراحلة ولكن عزاءه قرب الوصـــول إلـــى الممدوح الذي سيبثه شكواه أملاً في الإجابة.

حسن التخلص

اهتم النقد القديم بشكل القصيدة العربية، وانتقال الشاعر من غرض إلى آخر في قصيدتـــه من ابرز اهتمامات النقاد، ويعرف الحموي حسن التخلص بقولـــه: "هـــو أن يســـتطرد الشـــاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوح بتخلص سهل يختلسه اختلاســـاً رشـــيقاً دقيـــق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجـــة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحدٍ ولا يشترط أن يتعين المتخلص منـــه، بل يجري ذلك في أي معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل أو فخر أو وصـــف روض، أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو... ولكن الأحسن أن يتخلص الشاعر مـــن الغزل إلى المدح"[١].

وسمّي حسن التخلص بأسماء مختلفة، فهذا ابن المعتز يسميه حسن الخروج من معنى إلـــى معنى ويعده من محاسن الكلام[٢].

ويعرض القرطاجني إلى حسن التخلص بقوله: "هو عطف أعنة الكلام من جهة إلى أخـــرى ومن غرض إلى غرض"[٣]، ويسميه حازم الصورة الالتفاتية فيكمل العبارة السابقة بقولـــه عـــن

---

(١) ابن حجة الحموي (ت٨٢٧هـ)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، دار القاموس الحديث، لبنان، ص١٤٩.

(٢) عبد الله بن المعتز، **البديع**، أغناطيوس كراتشقوفيسكي، ط٢، منشورات دار الحكمـــة، حلبونـــي، دمشـــق، ١٩٨٩، ص٦٠.

(٣) حازم القرطاجني، **المنهاج**، مصدر سابق، ص٣١٥.

الصورة الالتفاتية "وهي أن يجمع بين حاشيتي كلامين متباعدي المآخذ والأغراض وأن ينعطف من إحداهما إلى الأخرى انعطافاً لطيفاً من غير واسطة تكون توطئة للصيرورة من أحدهما إلى الآخر على جهة من التحول فهذا هو الاستدراج أو التدرج... أما الاستطراد عنده... فهو ما يخلص فيه إلى الشيء مما يليه من الكلام بغير تدرج[١].

ويفرق ابن رشيق بين الاستطراد وحسن التخلص على أساس أن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ثم تتمادى فيما خرجت إليه بينما الاستطراد أن يقطع الشاعر كلامه إلى معنى آخر ثم يعود إلى كلامه الأول... ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً[٢].

إن للشعراء العرب طرقاً في الخروج والتخلص من غرض إلى آخر فهذا ابن رشيق يقول: "يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله "دع ذا" و"عد عن ذا" ويأخذون فيما يريدون أو يأتون "بإن" المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه... ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة "إلى فلان قصدت" و"حتى نزلت بفناء فلان" وما شاكل ذلك"[٣].

انظر هذا التخلص البارع للراعي النميري[٤]:

أبى الله لي و الدين و التقى ... و بالشام أن حكمته العدل

أريد أمير المؤمنين فانه ... على كل أنحاء الرجال له الفضل

وهنا لابد من الوقوف على إشارة بالغة الأهمية فلان أشعار الشكوى غلبت عليها المقطوعات القصيرة فإن الشّعراء لم يكونوا بحاجة إلى حسن التخلص كما في القصائد الطويلة.

خواتم شعر الشكوى

مثلما اهتم النقاد القدامى بمقدمات القصائد وافتتاحها، واهتموا بالتخلص، طالبوا الشعراء بالاهتمام بخاتمة قصائدهم وتجويدها وتحسينها، وذلك لأن "خاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح والأعمال بخواتيمها.."[٥]، ولأن الانتهاء هو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكماً، لا يمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده

---

(١) حازم القرطاجني، **المنهاج**، المصدر السابق، ص٣١٥.

(٢) ابن رشيق، **العمدة**، مصدر سابق، ج١، ص ص٤٠٩-٤١٢.

(٣) ابن رشيق، **العمدة**، المصدر السابق، ج١، ص٤١٥.

(٤) **ديوان الراعي النميري**، مصدر سابق، ص٩٦.

(٥) ابن رشيق، **العمدة**، ج١، مصدر سابق، ص٣٨٨.

أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له، وجب أن يكون آخره مثلاً عليه.."[(١)].

ويرى ابن رشيق صنفاً من الشعراء "يختم القصيدة فيقطعها والنفس بـــها متعلقـــة، وفيـــها راغبـــة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً، كأنه لم يتعمد جعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو وإسقاط الكلفة"[(٢)].

ويؤكد القرطاجني أهمية مراعاة المعنى بين خاتمة القصيدة وغرضها من خـــلال قولـــه: "فأما الاختتام فينبغي أن يكون بمعان سارة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعانٍ مؤســـية فيمـــا قصد به التعازي والرثاء، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه، وينبغـــي أن يكـــون اللفظ مستعذباً، والتأليف جزلاً متناسباً، فإن النفس عند منقطع الكلام تكون متفرغة لتفقد ما وقـــع فيه غير مشتغلة باستئناف شيء آخر"[(٣)].

انظر إلى هذه الخاتمة على لسان ابن همام السلولي:

كـــانوا أتونـــا رجـــالاً، لا ركـــاب لـــــهم   وأصبحـــوا اليـــوم أهـــل الخيـــل والإبـــل

وهذه نهاية تنم عن براعة فأراد الشاعر لنهاية قصيدته أن تبقى ملتصقة في سمع الأمـــير، إذ أن هذه الثلة جاءت "رجالاً" بلا دواب تحملها واليوم هم أهل الخيل والإبل والمراكـــب فـــأراد الشاعر أن يلفت نظر الخليفة أن هذا الغنى الفاحش وهذه الحياة الرغيدة التـــي يعيشـــها هـــؤلاء الحكام كانت بسبب ظلمهم للناس واستلابهم الأموال.

ولأن الشكوى في معظمها كانت من مقطوعات شعرية قليلة الأبيات فإن نهاياتـــها كـــانت قريبة من بداياتها، وأحياناً ما كانت الخواتم تنطق بحكمة انظر قول عبد الله بن الزبير[(٤)].

أتطمع بالخلودِ إذا هلكنا   وليسَ لنا ولا لك من خلودِ

---

(١) ابن رشيق، **العمدة**، ج١، المصدر السابق، ص٤١٥.

(٢) ابن رشيق، **العمدة**، ج١، المصدر السابق، ص٤١٧.

(٣) حازم القرطاجني، **المنهاج**، مصدر سابق، ص٣٠٦.

(٤) **ديوان عبد الله ابن الزبير**، مصدر سابق، ص٨٥.

خاتمة

تناول الباحث شعر الشكوى من الحكام في العصر الأموي وهي ظاهرة لم تدرس في ذلك العصر بالذات رغم أهميتها وانتشارها، إلا أنها لم تكن مستقلة أي أن الشكوى لم تكن غرضاً شعرياً منفصلاً بل كانت ظاهرة اجتماعية عبر عنها الشعراء من خلال قصائدهم الطويلة أحياناً وبمقطوعات شعرية أحياناً أخرى.

ومع وجود إرهاصات لهذه الظاهرة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام إلا أن العصر الأموي بما حمله من متغيرات اجتماعية وسكانية وحضارية ساعد على تعزيز هذه الظاهرة وصقلها، سواء بالأسباب السياسية التي تمثلت بظلم الخلفاء والحكام، وما أفرزته سياستهم أو الاجتماعية المتمثلة بالفقر والحرمان، وما أدت إليه من بعث ظواهر كان الإسلام قد أخمد جذوتها كظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي التي عدت باسم جديد في العصر الأموي (اللصوصية) وذلك؛ تمشياً مع العصر كما أدت هذه السياسات إلى المساعدة في بعث ظواهر أدبية كظاهرة الغزل العذري التي عزاها الكثير من الباحثين إلى الفقر والحرمان وتجاهل السلطة السياسية لسكان القرى والصحراء والبوادي التي انتقلت بمركزه وثقلها من الحجاز إلى الشام تاركة وراءها فقراً وجوعاً تسلل إلى البيئات المقفرة أصلاً... وبيوت المال في دمشق مترعة.

وازدهرت سياسة "السجون" في هذا العصر بسبب التمرد والعصيان على سياسات الحكم، وأودع فيها المجرم والمظلوم، وطُرِدَ أصحاب الرأي المخالف للسلطة وشاهد الشعراء كل هذه المشاهد وعاصروها وعبروا عنها بقصائدهم. فوصفوا السجون والسجان بكل التفاصيل والآلام التي كابدوها فيها وفي جانب الفقر عبّروا بكل السخط عن الحالات المتردية وقارنوها بأحوال أعوان السلطان الرغيدة واستنكروا ذلك، واستنكروا ظلم الولاة وجامعي الضرائب وسياساتهم التي انصبت على ملء بيت المال دون الالتفات حتى لسنين الجدب والقحط، واشتكى الشعراء من سوء إدارة الدولة وقادة الجند الفاتح في أطراف الدولة البعيدة... ومن دور السلطان في اذكاء الفتن بين القبائل لتبقى في حالة من الفرقة ويبقى الأمويون لا يصلح إلا عليهم العرب، إلا أن هذه السياسات بمجملها وما جابهها من ردود الفعل من الشعراء والمجتمع عامة أذنت بانهيار الدولة وقيام الدولة العباسية على أنقاضها.

وخرج الباحث في الجانب الفني لشعر الشكوى أن هذه الظاهرة لم تحظ بقصائد طويلة متخصصة بل جاءت مع أغراض الشعر الأخرى وأكثر بروزها كان في المقطوعات الصغيرة، المؤثرة، ولغتها بسيطة يسهل فهمها وتداول أفكارها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

أ) **القرآن الكريم.**

ب) **الكتب.**

١) أرسطو، **فن الشعر**، ترجمة وشرح وتحقيق، عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٨.

٢) ابن الأثير، ضياء الدين محمد بن نصر الله (ت٦٢٢هـ)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٨٠.

٣) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)، **الأغاني**، تحقيق إبراهيم الأبياري، الجزء الثّالث عشر، دار الكتب العلمية المصرية، ١٩٦٩.

٤) ــــــ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)، **مقاتل الطالبين**، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٧.

٥) الأصمعي، عبد الملك ابن قريب (ت٢١٦هـ)، **الأصمعيات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، د.ت.

٦) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، **صحيح البخاري**، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٨.

٧) البصري، صدر الدين، علي بن الحسن (ت٤٣٦هـ)، **الحماسة البصرية**، تحقيق مختار الدين أحمد علي، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.

٨) البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت٤٨٦هـ)، **خزانة الأدب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب، ١٩٦٧.

٩) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت٢٧٩هـ)، **أنساب الأشراف**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م.

١٠) الجاحظ، أبو عمرو عثمان بن بحر (ت٢٥٥هـ)، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠.

١١) ـــــ، أبو عمرو عثمان بن بحر (ت٢٥٥هـ)، **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الثالث، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٦٩.

١٢) الجرجاني، عبد القادر، (ت٤٧٤هـ)، **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د.ت.

١٣) ـــــ، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة الأولى، نشر مطبعة المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

١٤) الراغب الأصفهاني، أبي القاسم حسين بن محمد المفضل (ت٥٠٢هـ)، **محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء**، مج١، ج٢، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٤٣٨.

١٥) الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر بن أحمد بن عمر الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، **أعجب العجب في شرح لامية العرب**، تحقيق محمد إبراهيم حوّر، الطبعة الأولى، مكتبة سعد الريس، سورية، دمشق، ١٩٨٧.

١٦) السيوطي، الحافظ جلال الدين (ت٩١١هـ)، **تاريخ الخلفاء**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨.

١٧) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ)، **الملل والنحل**، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

١٨) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، **تاريخ الأمم والملوك**، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩١.

١٩) الطثرية، يزيد، **شعر يزيد بن الطثرية**: صنعة حاتم الضامن، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع مطبعة أسعد بغداد، د.ت.

٢٠) القيرواني، أبو علي حسن بن رشيق (ت٤٦٣هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، تحقيق محمد قرقزان، الطبعة الثانية، مطبعة الكاتب العربي، دمشق، ١٩٩٤.

٢١) المبرد، محمد بن يزيد، **الكامل في الأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، مصر، القاهرة، د.ت.

٢٢) المسعودي، علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، طبعة محيي الدين عبد الحميد.

٢٣) ابن المعتز، عبد الله، **البديع**، اغناطيوس كراتشقوفيسكي، الطبعة الثانية، منشورات دار الحكمة، حلبوني، دمشق، ١٩٨٩.

٢٤) الجمحي، محمد بن سلام، **طبقات الشعراء**، دار النهضة، بيروت، د.ت.

٢٥) الحموي، ابن حجة، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، دار القاموس الحديث، لبنان، د.ت.

٢٦) خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، دار النهضة، مصر، د.ت.

٢٧) **ديوان ابن قيس الرقيات**، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

٢٨) **ديوان الأخطل**، تحقيق الدكتور: فخر الدين قباوة، دار الأصمعي، حلب، ١٩٧١.

٢٩) **ديوان الأعشى**، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤.

٣٠) **ديوان الراعي النميري**، تحقيق راينهرت فايبر، المعهد الألماني للأبحاث، بيروت، ١٩٩١.

٣١) **ديوان الفرزدق**، جمع: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٩٣٦.

٣٢) **ديوان القتال الكلابي** تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.

٣٣) **ديوان الكميتُ بن زيد**، جمع وتحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

٣٤) **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٠.

٣٥) **ديوان ابن همام السلولي**، تحقيق :وليد السراقبي، مطبوعات: مركز جمعة الماجد، ١٩٩٦.

٣٦) **ديوان جرير**، جمع: يوسف عيد، دار الجبل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

٣٧) **ديوان جميل شاعر الحب العذري**، جمع وتحقيق: حسين نصار، د.ت، د.ط.

٣٨) **ديوان رؤبة بن العجاج**، في مجموع أشعار العرب، صححه: وليم ابن الورد البروسي، منشورات دار الثقافة الجديدة، سلسلة ذخائر التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩.

٣٩) **ديوان طهمان بن عمر الكلابي**، شرح أبي سعيد السكري، تحقيق: محمد جبار المعيبد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م.

٤٠) **ديوان عبد الله بن الزبير الأسدي**، تحقيق: يحيى الجبوري، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م.

٤١) **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وشرحه، دار الأندلس، بيروت، د.ت.

٤٢) **ديوان كعب الأشقري**، شعره، جمع وتحقيق: داود سلوم، مكتبة الأندلس، بغداد، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٦٩.

٤٣) **ديوان لبيد بن ربيعة**، طبعة إحسان عباس، الكويت، ١٩٦٢.

٤٤) **ديوان مالك بن الريب**، شعره، جمع: عبد المعين الملوحي، أشعار اللصوص وأخبارهم، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨.

٤٥) **ديوان يزيد بن مفرغ الحميري** (ت٦٩هـ)، جمعه وحققه: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة البيان للطباعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥.

٤٦) **شرح ديوان الخنساء تحقيق عبد السلام الحوفي**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٥.

٤٧) **شرح ديوان عنترة بن شداد**، تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، تقديم إبراهيم الأبياري، طبع شركة فن الطبع، شبرا، د.ت.

٤٨) ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد بن أحمد العلوي (ت١٩٩هـ)، **عيار الشعر**، تحقيق: عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٠.

٤٩) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٢٨هـ)، **العقد الفريد**، طبعة أحمد أمين ورفيقيه.

٥٠) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت: مكتبة النصر، بالرياض، ١٩٩٦.

٥١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

٥٢) ابن هشام (ت٢١٨هـ)، **السيرة النبوية**، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار إحياء الكتب العربية، د.ت، د.ط.

٥٣) وادي، طه، **ديوان رفاعة الطهطاوي**، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٩م.

ثانياً: المراجع:

١) أدونيس، **زمن الشعر**، الطبعة الثانية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٨.

٢) إسماعيل، عز الدين، **الأسس الجمالية**، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٥.

٣) أنيس، إبراهيم، **موسيقى الشعر**، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو، مصر، ١٩٧٨.

٤) الأمين، حسن، دار المعارف الاسلامية الشيعية، بيروت، ١٩٧٢.

٥) البطل، علي، **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**، الطبعة الثالثة، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣.

٦) البهبيتي، نجيب، **تاريخ الشعر حتى آخر القرن ٣هـ**، الطبعة الرابعة، دار الفكر، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠.

٧) التطاوي، عبد الله، **القصيدة الأموية، رؤية وتحليل**، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

٨) الجبوري، يحيى وهيب، **لبيد بن ربيعة العامري**، الطبعة الثالثة، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣م.

٩) الحاوي، إيليا، **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، الطبعة الثالثة، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٠.

١٠) ــــــــــ، **في النقد والأدب**، العصر العباسي، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦.

١١) حسن، حسن إبراهيم، **تاريخ الإسلام**، النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م.

١٢) حسين، طه، **حديث الأربعاء**، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤.

١٣) خالد، خالد محمد، **رجال حول الرسول**، د.ط، دار ثابت، بيروت، د.ت.

١٤) الخفاجي، عبد المنعم محمد، **الحياة الأدبية في العصر الأموي**، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠.

١٥) خليف، يوسف، **الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

١٦) الرباعي، عبد القادر، **الصورة الفنية في النقد الشعري**، الطبعة الثانية، إربد، المملكة الأردنية الهاشمية، ١٩٩٥.

١٧) ــــــــــ، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، نشر جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٨٠.

١٨) ردتشاردز، **مبادئ النقد الأدبي**، ترجمة: مصطفى بدوي، مراجعة: لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، مصر، ١٩٦٣.

١٩) رومية، وهب، **الرحلة في القصيدة الجاهلية**، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م.

٢٠) زراقط، عبد المجيد حسين **الشعر الأموي بين الفن والسلطان**، دار الباحث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

٢١) الزركلي، **الأعلام**، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧.

٢٢) زيد، عبد الرزاق، **كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي**، دراسة وتحليل، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٦.

٢٣) زيد، علي إبراهيم، **الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.

٢٤) الزير، محمد، **الحياة والموت في الشعر الأموي**، الطبعة الأولى، دار أُميَّة، الرياض، ١٩٨٩.

٢٥) سلام، محمد زغلول، **النقد الأدبي في العصر المملوكي**، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٧١.

٢٦) السويدي، فاطمة محمد حميد، **الاغتراب في الشعر الأموي**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧.

٢٧) سويف، مصطفى، **الأسس النفسية للإبداع الفني في الشّعر خاصة**، الطبعة الثالثة، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٧٠.

٢٨) الشايب، أحمد، **أصول النقد الأدبي**، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣.

٢٩) الشكعة، مصطفى، **فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين**، بيروت، عالم الكتب، ١٩٧٧.

٣٠) الصائغ، عبد الإله، **الزمن عند الشعراء قبل الإسلام**، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

٣١) ـــــــــــ، **الصورة الفنية معياراً نقدياً**، منحنى تطبيقي على شعر الأعشى الكبير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.

٣٢) ضيف، شوقي، **التطور والتجديد في الشعر الأموي**، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، د.ت.

٣٣) ـــــــــــ، **العصر الإسلامي**، مصر، الطبعة السادسة، دار المعارف، د.ت.

٣٤) ــــــــ، **العصر الجاهلي**، الطبعة السابعة، مطبعة دار المعارف، مصر، ١٩٧٦.

٣٥) الطاهر، علي جواد، **الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي** مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦١.

٣٦) طبانة، بدوي، **معلقات العرب**، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤.

٣٧) الطرابلسي، محمد الهادي، **خصائص الأسلوب في الشوقيات**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١.

٣٨) الطيب، عبد الله، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠.

٣٩) العاني، سامي، **الإسلام والشعر**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٨٣.

٤٠) عبد الرحمن، إبراهيم، **الشعر الجاهلي**، قضاياه الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٠.

٤١) عبد الرحمن، نصرت، **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**، مطبوعات مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٦.

٤٢) عتيق، عبد العزيز، **علم العروض والقافية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨.

٤٣) عساف، سيمون ساسين، **الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس**، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢.

٤٤) العش، يوسف، **الدولة الأموية الأحداث التي سبقتها ومهدت لها**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٤٥) عصفور، جابر، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢.

٤٦) عطوان، حسين، **الشعراء الصعاليك في العصر الأموي**، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠.

٤٧) عطية، خليل إبراهيم، **التركيب اللغوي لشعر السياب**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٦٨.

٤٨) عمر أبو النصر، **الخوارج في الإسلام**، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٤٩.

٤٩) عيد، رجا، **التجديد الموسيقي في الشعر العربي**، دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد في الشعر العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

٥٠) الغازي، الهادي حمودة، **الشعر الأموي في خراسان والبلاد الإيرانية**، الدار التونسية للنشر، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٦.

٥١) القاضي، النعمان، **شعر التفعيلة والتراث**، طبعة دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧.

٥٢) القط، عبد القادر، **في الشعر الإسلامي والأموي**، مكتبة الشباب، مصر، د.ت.

٥٣) القيسي، نوري حمودي، **شعراء أمويون**، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

٥٤) الملوحي، عبد المعين، **أشعار اللصوص وإخبارهم**، دار طلاس للدراسات والترجمة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

٥٥) معروف، نايف، **الخوارج في العصر الأموي**، الطبعة الثالثة، بيروت دار الطليعة، ١٩٨٦.

٥٦) مكليش، ارشيبالد، **الشعر والتجربة**، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مراجعة توفيق صايغ، نشر دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٣.

٥٧) مندور، محمد، **النقد المنهجي عند العرب**، ومنهج البحث في الأدب واللغة مترجم عن الأستاذين لانسو، ومابيه، دار مصر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٠.

٥٨) نوفل، سيد، **شعر الطبيعة في الأدب العربي**، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٨٩.

٥٩) النويهي، محمد، **الشعر الجاهلي-منهج في دراسه وتقييمه**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.

٦٠) هلال، محمد غنيمي، **النقد الأدبي الحديث**، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٧٤.

٦١) وادي، طه، **شعر ناجي، الموقف والأداة**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.

٦٢) ويلك، رينيه، ووارين، أوستن، **نظرية الأدب**، ترجمة: محيي الدين صبحي، مراجعة: حسام الخطيب، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١.

٦٣) اليوسف، يوسف، **مقالات في الشعر الجاهلي**، الطبعة الرابعة، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٥.

ثالثاً: الدوريات:

١) التميمي، قحطان رشيد، "الشكوى في الشعر الجاهلي"، **مجلة كلية الآداب**، بغداد، العدد ١٣، ١٩٧٠.

٢) الحاوي، إيليا، "العقل في الشعر بين التشبيه والاستعارة والرمز"، **مجلة الآداب البيروتية**، ديسمبر، ١٩٦٢.

رابعاً: الرسائل العلمية:

١) البستاني، بتول حمدي، **ظاهرة الشكوى في شعر هذيل**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل.

٢) القلماوي، سهير، **أدب الخوارج، العصر الأموي**، رسالة ماجستير، ١٩٤٥م.

٣) مجيد، جواد رشيد، **الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري**، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٨م.

٤) محمد، محمد أحمد، عروة بن أذينة، **حياته وشعره**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٧م.

٥) مقابلة، محمد غازي، **شعر عبد الله بن الزبير الأسدي**، دراسة أدبية، رسالة ماجستير، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٩م.

The Poetry of Complaint from the Rulers in the Ummayad Period 41-132H/661-744C

Researcher: Salem Odeh Al-Zboon
Supervisor: Abdul Rahman Al-Howaidi

The Ummayad period is considered as one of the most prosperous age in the Arab and Islamic history in all aspects of life, civilization, political, economic and literature. Many studies discussed this period of time and its literary achievements. With this big quantity of studies, new subjects and new questions arise, which leaves the door open for researchers to study the phenomena of poetry, which are so many during the Ummayad era, for example the poetry of complaint from the rulers. This study tried to infiltrate into the Poetic books (*dwaween*) of Ummayad era and discover the reasons behind this phenomena, its motives, and the role of rulers in it.

The study discussed the general concept of complaint, and its first symptoms during the jahili era and the beginnings of Islam. Then discussed the political complaint during Ummayad era represented by the complaint against the unjust of Khulafa and those below, of wali, sa'ii, tax collectors, leaders of soldiers, and the heir apparent too.

Of the social part, this study also discussed the complaint of poverty, deprivation, and the role of rulers in emphasizing them through unfair policies, by giving money to assistants while depriving others, and consequences on social and literature, i.e., prosperity of a phenomena which vanished after Islam, the phenomena of paupers. Complaints included prisons, situations, what Moslems face of pain. Poets used their talents in mentioning prisons, their doors, chains, locks around their ankles and necks, and the physical and psychological characteristics of the prison man.

The technical characteristics of complaint poetry included:

- The phenomena was a basis for the short poetry.
- Most of it described facts of life.
- Expressions were simple.